

الرقم التسلسلي:.....
رقم التسجيل: 13/MD12/150

الحنين في شعر الأمير عبد القادر
قصيدة " الباذلون نفوسهم " أنموذجا

مذكرة مكملة لنيل شهادة ماستر

ميدان: لغة و أدب عربي فرع: أدب عربي تخصص: أدب جزائري

إشراف الأستاذ:
أرفيس بلخير

إعداد الطالب (ة):
بن حليلة سعيدة

أمام لجنة المناقشة:

مشرفا

أ. أرفيس بلخير

رئيسا

أ.مهدي عمار

ممتحنا

أ.بوجلال الربيع

السنة الجامعية: 2015/2014

إهداء

إلى التي لو جاز السجود لغير الله لسجدت لها أُمي الحبيبة نبع الحنان
وواحة الأمان.

إلى بحر الحنان الممدود غير المحدود وسندي المتين في كل الأحوال والعقود والذي
الحبيب.

إلى من أهداهم لي الرحمن هبة تستحق السجود سمير، فوزي، حمزة، وإلياس، وضياء
الدين إخوتي الأعزاء.

إلى أنسي ومهجتي في الوجود صافية وأحلام عطية المولى الودود.

إلى عقد اللؤلؤ المنثور مستقبل العائلة الموعود عبد المؤمن، ومعتز،

يمنى، حنين، وأميمة وهاجر ابناء وبنات الإخوة والأخوات

إلى زوجات الأخ وأزواج أخواتي فاتح والنذير

إلى الجد علي والجدة مباركة وأخوالي موسى ومُجد وخالاتي

إلى كل هؤلاء حبي وتقديري ودعواتي

ان يجمعني الله بهم في جنة الخلود.



LOVE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و عرفان

قال الله تعالى: " وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " الآية 7 من سورة

إبراهيم. اللهم لك الحمد حتى ترضى، و لك احمد حين ترضى، و لك الحمد بعد الرضى. اللهم لك الحمد و

الشكر كما ينبغي لجلال وجهك و عظيم سلطانك

والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد باعث النور وشارح الصدور ، ونبراسنا في تبجيل العلم من المهدي حتى نوارى

القبور.

وبعد أخص بالشكر الجزيل أستاذي "أرفيس بلخير" الذي تابع تفاصيل هذا العمل، ولم ييخل علي بتوجيهاته

القيمة.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكلية اللغة العربية وآدابها ممثلة في عميدها وأساتذتها .

كما أتقدم بخالص شكري وعرفاني إلى رمز العطاء الممدود غير المحدود، إلى والدي الحبيين حفظهما الله ورعاهما

والشكر موصول إلى عائلتي الكريمة فردا فردا .

كما يطيب لي في هذا المقام أن أتقدم بوافر الشكر لأعضاء اللجنة المناقشة الذين تفضلا بقبول النظر في هذا

البحث مستحلمين عناء تقويمه وإستكمال نقصه.

كما لا يفوتني أن اتقدم بالشكر الوفير إلى فريق مكتبة القلم.

والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، عليه السلام

سعيدة

الصفحة	
	شكر وعران
أ	مقدمة
	الفصل التمهيدي
05	- تصميم الشعر الجزائري الحديث.
10	1- تطور الشعر الجزائري.
10	2- رواده.
10	3- أغراضه
	الفصل الأول: الأمير عبد القادر (حياته، و ثقافته).
45	أولاً: ولادته ونشأته
45	1- شخصيته.
52	2- منابع ثقافته.
	الفصل الثاني: التجربة الشعرية عند الأمير عبد القادر
73	1- الأمير الشاعر
76	2- التعريف بالديوان و أهم الأغراض الشعرية به.
101	3- آثاره الشعرية.
101	4- وفاته.
	الفصل الثالث: مقاربات في مفهوم الحنين لغة و اصطلاحاً.
103	أولاً: مفهوم الحنين لغة و اصطلاحاً
105	ثانياً: مثيرات الحنين
120	ثالثاً: مواطن الحنين في قصيدة الباذلون نفوسهم
125	الجمالية الفنية في القصيدة
130	الخاتمة
	قائمة المصادر والمراجع

مقدمة:

الحمد لله الذي زين كتابه باسمه العظيم الرحمان الرحيم و الصلاة و السلام على الرسول الكريم قدوتنا الحسنة في تأصيل معنى الرحمة كمبدأ، و كمنهج نكره في كل يوم و في كل صلاة و في كل ركعة " بسم الله الرحمان الرحيم " اسم عظيم و عريق أردت التوقف عنده علي أستمد منه معاني كثيرة، و بما أن الشعر منحة الله البارزة التي خص بها الشعراء في قدرتهم على التعبير و التصوير.

فقد اخترت هذا البحث الذي وسمته بالعنوان " الحنين في شعر الامير عبد القادر " لأخص به في الدراسة جانبا من جوانب الشعر إلى التعبير عن معاناة الإنسان و خلجاته النفسية، فاخترت موضوع الحنين إلى الأحبة ليكون الشاعر والأمير عبد القادر ليكون أمير هذا الموضوع، كونه شاعرا عاش حياته مغتربا عن وطنه، فالحنين إلى الأحبة شعور وجداني رقيق يعبر به الشاعر عن مشاعره العذبة المثقلة بالوجع و الشكوى نتيجة إحساسه بالغربة من خلال سكب هذه الأحاسيس في قالب شعري جمالي ممتع، و هذا ما يجعل من الموضوع مراما لكل باحث يجتهد من أجل الخروج بأهم النتائج التي تولدها هذه الظاهرة في الذات الإنسانية.

و عليه و من أجل هاته الأسباب حاولت من خلال هذا البحث تقديم قراءة لحنين الشاعر " الأمير عبد القادر " لأحبته و أصدقائه، و للوطن بصفة عامة من خلال الإطلاع على شعره إذ وجدت فيه مادة تستحق البحث. هذا من جهة و من جهة أخرى ثمة أسباب ذاتية و موضوعية.

أما الأولى " الذاتية " انبھاري بهاته الشخصية الأسطورية التي وصلت للعالمية في زمن يفتقد إلى وسائل الإعلام.

و الثانية " الموضوعية " : بغية تطبيق المنهج الوصفي و التحليلي لمعرفة أبعاد ومواطن الحنين في شعر الأمير.

و قد طرحت جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكالية هذا البحث :

ما دلالة مصطلح الحنين إلى الأحبة؟ و ما هي المصطلحات التي يحيل إليها عنوان البحث؟ وما هي الدواعي التي حملت الأمير عبد القادر على الاغتراب؟ و كيف تجلت مواطن الشوق و الحنين إلى الاحبة في شعره؟ و كيف عبر شاعرنا عن هذا الحنين؟ و الإجابة على هذه الاسئلة شكلت بدورها هذا البحث الذي سار وفق خطة تمثلت في:

مقدمة: تناولت أهمية الموضوع، و سبب اختياره.

فصل تمهيدي: بعنوان تعريف الشعر الجزائري و مساره التاريخي عبر العصور.

الفصل الأول: بعنوان التعريف بالأمير (حياته، شخصيته، ثقافته).

الفصل الثاني: بعنوان " التجربة الشعرية عند الأمير عبد القادر " .

الفصل الثالث: الحنين إلى الأحبة " قصيدة الباذلون أنفسهم نموذجاً "

ففي العنصر الأول: عرفت بالشعر الجزائري، و تطوره عبر العصور بدءاً من شعر الأجراس وصولاً إلى الشعر الحر في العصر الحديث، و قد تناولت نماذجاً من كل عصر. هذا فيما يخص الفصل التمهيدي، أما الفصل الأول فقد ضم تعريفاً بالشاعر الذي اخترته كأنموذج للدراسة، كما ضم شخصيته كشاعر، ومواقفه الإنسانية و منابع ثقافته. و بالنسبة للفصل الثاني: فقد سلطت الضوء عن التجربة الشعرية عند الأمير و ركزت بالخصوص على ديوانه إضافة إلى نماذج من ديوانه و أهم الأغراض الشعرية به، و أخيراً وفاة الأمير و اقوال نجمه و آثاره الشعرية و مؤلفاته.

أما في الفصل الثالث: فقد أدرجت تجليات الحنين إلى الأحبة في قصيدة " الباذلون نفوسهم " من ديوان الأمير عبد القادر، و قبل ذلك تناولت مقاربات نظرية في مفهوم الحنين لغة و اصطلاحاً و كذا مثيرات الحنين.

ثم جاءت الخاتمة التي كانت خلاصة لأهم النتائج المتحصل عليها في البحث، و كذا قائمة المصادر و المراجع.

و قد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي كما سبق و أن أشرت، كما اعتمدت لإنجاز هذا البحث على دراسات متعددة ساعدتني على ضبط خطته وكذا على

تجميع ما تيسر من المعلومات في هذا الشعر العربي - الحنين إلى الأوطان - أما المصادر الأساسية في هذه الدراسة فقد كانت متمثلة في ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، 1807 م - 1883 م و هو الطبعة الثالثة التي صدرت سنة 2007 م في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

و قد تم جمع، و تحقيق، و شرح و تقديم هذا الديوان الدكتور العربي دحو، إضافة إلى مراجع و كتب أخرى أخذت منها معلومات حول كل ما يخص شاعرنا " الأمير عبد القادر " وحنينه إلى الأحبة و وطنه.

و لا أنكر في أنه واجهتني صعوبات جمة، و منذ بداية جمع المادة العلمية، فعلى سبيل المثال واجهتني صعوبة التنقل إلى الجامعة كوني، تعرضت لحادث حال بيني و بين العمل كما يجب.

و لكن بفضل الله و توفيقه استطعت أن أتغلب على الكثير من الصعوبات التي كانت تعترض طريقي، كما لا أنسى دور الأستاذ المشرف: الأستاذ أرفيس بلخير الذي لم يبخل علي بالنصائح القيمة كل من قدم لي يد العون من قريب أو من بعيد، فإلى كل هؤلاء خالص شكري و تقديري، و محبتي و عرفاني.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل التمهيدي: الشعر الجزائري الحديث ومساره التاريخي

أولاً: تعريف الشعر الجزائري.

ثانياً: تطور الشعر الجزائري.

ثالثاً: رواده.

رابعاً: أغراضه.

تصميم للشعر الجزائري الحديث

تمهيد:

يخطئ من يظن أن العروبة قد اختفت من الجزائر، و أكثر من ذلك خطأ أولئك الذين يحسبون أن ضفاف المتوسط و مروج الأطلس لم تلد شعرا و لا شعراء، و أن الأرض التي تنافس أوروبا في جمالها و روعتها قد عقت فلم تتجب أكثر من (المقري) و (ابن خميس)، و لم تمنح الأدب العربي سوى روافد من بجاية و تلمسان و قسنطينة، ذلك أن الجزائر العربية ما تزال على عهدا تضيء العبقرية و تبعث المواهب و تنتج الشاعرية و تزف إلى الأدب العربي بين الحين و الآخر أعطيات جديدة.

إن الذي ساعد على هذا الخطأ في فهم طبيعة الجزائر الحقيقية عاملان:

الأول: انقطاع الجزائر لظروف قاهرة عن شقيقاتها العربية.

و الثاني: رضا المفكرين العرب بهذا الانقطاع حتى تصوروه أمرا فوق التفكير و خارج

الطاقة.

و من ثم حسبوا الجزائريين في دار غربة، و اعتبروا ما جاء من الجزائر إنتاجا أجنبيا لا عربيا و كلفوا أنفسهم عناء البحث و التنقيب و السفر في سبيل ما ينتج الآخرون، و لكنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك عن أدب الجزائر ما حجبته الظلمات و غطته ثلوج الشتاء القاسي، غير أن هذا لا يعفي الجزائريين أنفسهم من التبعية أو يخفف عليهم ثقل الأمانة التي يتحملونها أما فكرهم و أدبهم و تاريخهم.¹

فقد خلد إلى السكينة، و صمتوا صمتا جعل الآخرين يعدونهم في قافلة الأموات، بينما كان من المحتم أن يصمدوا من أجل رسالة الأدب حتى النهاية و إذاعتها في الآفاق حتى تتجاوب مع أفكار الآخرين.

و لعل الذي ساعد بقاء الجزائر قريبا و ربيع تحت الاستعمار هو الفراغ الأدبي الذي كانت تعانيه، و الذي جعل كل شيء صامتا لا ينبس هادئا لا يتحرك، راضيا لا يتمرد، ذلك

¹ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2006م.ص25

أن الأدب الجزائري الحديث، و خصوصا الشعر، لم يكن منذ ظهوره محدود الهدف، عميق الصوت، قائد الخطوات و إنما ظهر إلى جانب النشاط الوطني الآخر، و سار معه دون أن يتقدمه خطوة واحدة رائدة أو يتمرد على مفاهيم معنية ذاتية.

و ليس معنى هذا أن الأدب الجزائري قد بلغ درجة يحسد عليها أو أنه شارف الكمال. كل ما يعنيه هذا التمهيد هو النص على أو للجزائر قدما راسخة في الأدب العربي و أن لها إنتاجا حديثا جديرا بالدرس. و مهما كان شأن من الأدب من الجودة أو الانحطاط، فإنه قد كان تعبيراً عن الحياة التي عاشتها الجزائر وراء القضبان عشرات السنين و صورة للصراع من أجل البقاء.¹

و هذا لا يعني لا يعني بالطبع أن ذلك الأدب كان نزوعاً إلى الهدف أو بشيراً إلى المجهول و يكفي الشعر الجزائري أنه احتفظ بميزة الصدق، و أنه كان صدى لخلجات الشعب و أناته، و صوتاً لكفاحه منذ استهل، و ما يزال معه جنباً إلى جنب لا يغتر و لا يلتفت إلى الوراء و لا تذهله الصفحات التي يتلقاها من وقت لآخر من يد غير رحيمة.

1- أن القرون الثلاثة التي سبقت الاحتلال الفرنسي كانت، من الناحية الأدبية و الفنية تكاد تكون عميقة.

2- أن الغزو الفرنسي، رغم الإرهاب و الجرائم التي صحبته كان مبعث يقظة شعبية تمثلت مرة في المقاومة المسلحة و أخرى في النشاط الفكري.

3- أن النظام الديني الأوتوقراطي الذي اتبعه الدايات في الجزائر قد حل محله العنف الدموي و الاستعمار المباشر على يد الفرنسيين، و قد أدى هذا التحول في الحكم إلى تحول في التعبير و أهدافه و وسائله.

4- إن جيلاً كاملاً من الشعراء قد ظهر في النصف الثاني من القرن الماضي. و قد أسهم هذا الجيل بنصيب وافر من الموضوعات و الشعارات و الأساليب الشعرية.

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007. ص65

5- إن الروح الانقلابية في الشعر و ارتباطه بالقضية الوطنية سلبا و إيجابا يجعلان الباحث يحكم بأن مرد ذلك كان تطور المفاهيم السياسية و الأدبية المعاصرة، و لذلك فإن من الممكن اعتبار شعر الأمير عبد القادر آخر مرحلة للشعر القديم في الجزائر.

و الحق أن الاحتلال الجاثم على صدر الجزائر لم يمكن الباحث من الاطلاع على إنتاج القرن الماضي ليعرف عن كئيب مقدار تقدم هذا الشعر أو جموده، و علاقته بالموضوعات التي تناولها، و أهمية الأهداف التي بشر بها¹. غير أن من الممكن التوصل إلى بعض النماذج التي تعود إلى الربع الأخير من القرن السابق، و التي اشترك في إنتاجها غير واحد من شعراء تلك الفترة السوداء من حياة الجزائر الأدبية. و هذه النماذج تثبت بأن موضوعات الشعر في ذلك الحين كانت لا تعدو الحماس و الفخر و الرثاء، و الوصف كما شاع فيها المدح و الغناء. أما الممثلون لهذا الشعر فهم شيوخ فاتح القرن الحالي الذين حملوا معهم بقايا البضاعة الشعرية التي سادت عهد شبابهم و كهولتهم².

و قد كادت تلك البضاعة تكون كاسدة لولا الامتداد الطبيعي و العاطفة الأصلية نحو العروبة الأصلية و التي كان الحفاظ على القرآن الكريم رمزها الأسمى. كما أن الإحساس بالضغط الشعبي، و العالمي قد دفع بأولئك الشعراء إلى محاولة التجاوب مع العصر، و لكن دون نجاح ملحوظ.

و تماشيا مع هذه الروح التي مثلها شعراء آخر القرن الماضي و أوائل القرن الحالي يعثر الباحث في أشعارهم على مدائح نبوية على نسق البردة و الهزيمة، و على روح دينية قانعة بالعيش بالمأساة التي كان يعانيتها الشعب الجزائري كما يجد الباحث هؤلاء الشعراء يتواصلون بالعمل النافع في العالم الآخر كأنهم على أبواب القبر.

و السر في هذه الروح العازفة اليائسة عن ملذات العيش و كرامة الحياة هو ما وصلت إليه الجزائر آنذاك من التجريد الذاتي و محاولة قتل الروح الوطنية على يد الغزاة الفرنسيين،

¹ أبو القاسم سعد الله: محمد الشاذلي القسنطيني، دار الرائد، الجزائر ص64.

² محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية ص26

فصل تمهيدي:

و معنى ذلك أن الشعر مهما كان يبدو الآن ضعيفا حالكا، كان يمثل تلك الفترة أصدق تمثيل.

ولكن روح اليأس التي سادت الشعر كانت قد تجاوزته إلى المظاهر الأخرى للحياة الجزائرية في مطلع القرن الحالي، و ذلك نتيجة لصدمات و الهزائم التي نسبت بها الجزائر كلما حاولت الانفلات من قبضة عدوها. ذلك أن الجزء من الوطن العربي لم يعرف الهدوء أو تذوق طعم الراحة منذ بداية الاحتلال فقد أعلى الجزائريون أكثر من ثورة و تمردوا على المحتل أكثر من مرة و قاوموا عدوهم بثتى الوسائل، و لكن هذا العدو قابل حركتهم دائما بالقوة مرة و بالوحشية أخرى، فكانت الهزيمة حليف الجزائريين نتيجة لفقدان التكافؤ المادي و المعنوي غير أنه شيئا فشيئا بدأ الجزائريون يستيقظون إلى أنفسهم، و سرعان ما تبينوا أن هذه الطريقة الفجة إلى مقاومة العدو كانت غير مجدية، بل قد تؤدي بالشعب إلى الفناء، فإذا كان الموقف يقتضي سياسة و حكمة واجهوه بهما، و إذا كان يتطلب ثورة وعنفا كان لهم من العدة و الاستعداد ما يحقق لهم آمالهم.¹

و هكذا تطور الشعور السياسي - الوطني في المقاومة الجزائرية للاستعمار تطورا جعل الشعر يتقدم خطوات بالمفهوم الكفاحي.

و قد ظهرت هذه الظاهرة بوضوح عشية الحرب العالمية الأولى، ثم حاربت الجزائر مجبرة مع فرنسا، و لكن الجزائريين خرجوا من هذه الحرب بتجارب ثمينة انضافت إلى خبراتهم التي اكتسبوها نتيجة محاولاتهم الفاشلة ضد فرنسا. كما أسفرت الحرب عن ظهور حركة وطنية بقيادة الأمير خالد، و بدأ الصراع السياسي بين الجزائر و فرنسا يزداد حدة على مر السنين إلى عام 1925.

انبثاق الشعر:²

¹ أبو العبد دودوا، كتب و شخصيات الشركة الوطنية لنشر و التوزيع، الجزائر ص92

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص34

فصل تمهيدي:

كان الغرض من هذه الجولة القصيرة إلقاء بعض الأضواء على أول انبثاق للشعر الجزائري، بالمفهوم الحديث، و رسم خط لسير الحركة الشعرية يتبين منه القارئ مدى ارتباط هذه الحركة بالتيارات الأخرى، سياسية أو غيرها، و الحق أن الشعر الجزائري لم تغره السياسة مهما بالغت في الجاذبية، فلم يسير في ركاب أي حزب، و لم يكن بوقا في انتخابات أو جرسا في كرسي معين، غير أنه يؤخذ على هذا الشعر على أنه كان أحيانا - كالشعر الأطريقي - بجانب التيار الوطني المندفع و يكتفي بالدوران حول نفسه أو في حلقة مفرغة فيها كثير من التعفن.¹

و لذلك فإنه لا يمكن للباحث أن يعير اهتماما لهذا الشعر. و حسبه منه أنه لم يجد أي صدى و لم يحدث أي اتجاه، و بالتالي مات في مهده إلى الأبد، و سواء أكان من الخير للشهر أن ينضم إلى حزب سياسي أو يبقى حرا يعالج مشاكل الوطن بطريقته الخاصة، فإنه من الضروري، أن يختار اتجاها معينا يجاهد من أجله حتى الانتصار. و هذا بعينه ما فعله الشعر الجزائري. حقا إن هذا الشعر لم ينضم إلى الأحزاب السياسية، و لكنه لم يبقى على الهامش يقدح هذا و يطرب ذاك، بل اختار منظمة وطنية أخرى غير سياسية بالرغم من أنها كانت تحمل شعارات (الإخاء، العدالة، المساواة، الحرية)، تلك هي جمعية العلماء التي أسسها الإمام عبد الحميد بن باديس في أوائل العقد الرابع من هذا القرن. و قد تسترت هذه الحركة أول مرة من تحت تعاليم الإسلام و اللغة العربية و محاربة الخرافات، و حفظ شخصية الجزائر و لكنها ما لبثت - بعد أن تركزت و أصبح لها جمهور قوي أن أعلنت أن المبادئ السابقة تستلزم انفصال الجزائر عن فرنسا.

و ليس معنى ارتباط الشعر الجزائري بالحركة الإصلاحية أنه انعزل تماما عن بقية الاتجاهات الأخرى، و لكن الذي حدث بالذات هو أنه كان ينظر إلى القضايا الوطنية جميعها من زاوية واحدة هي زاوية الإصلاح الثقافي و الاجتماعي.

¹ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية ص36

و لدراسة ذلك الشعر دراسة تتمشى مع الآراء السابقة وضعنا له هذا التصميم و ذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الصراع الشعبي، و تتدافع أثناءها الأمواج الوطنية في أشكال مختلفة. و من الممكن أن يكون هذا التصميم على النحو التالي:¹

1- شعر المنابر في أواخر القرن إلى 1925.

2- شعر الأجراس 1925-1936.

3- شعر البناء 1936-1945.

4- شعر الهدف 1945-1954.

5- شعر الثورة 1954.

و يجب أن يكون واضحا أن تناول الشعر على هذا النحو لم يكن مستند على اعتبار أن كل فترة تمثل حدا فاصلا. أن المقصود من ذلك التناول يقوم على تتبع الحوادث التاريخية و مدى تأثيرها في الشعر.²

و لذلك فإنه في أحيان كثيرة يصعب التمايز في الطابع العام لهذا الشعر. على أن هناك موضوعات أخرى إلى جانب التقسيم المشار إليه، يدرسها هذا البحث في شيء من الإيجاز و هي:

1- تطور الشعر الجزائري

2- رواده

3- أغراضه حسب مساره التاريخي

شعر المنابر إلى 1925:

في هذا الشعر كثير من رواسب الماضي و مخلفاته. و نحن إذ نطلق عليه هذا الاسم نقصد المعنى اللفظي للعبارة، فهو شعر منبري لحما و دما. ذلك أن أساسه الوعظ و الإرشاد و أصباغه دينية يكثر فيها لفظ الإسلام و الإصلاح و السلف و ما شاكلها. كما أن أهدافه

¹ أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات ص96

² محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية صص28

فصل تمهيدي:

إصلاحية ترمي إلى إنماء الوعي الشعبي عن طريق الدين و المبادئ الخلقية. و قد سبقت الإشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الإصلاحية، و لذلك فقد كان شعر المنابر أن يوضح أغراض هذه الحركة و يصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب و تبعث فيه الحماسة و اليقظة كما نفعل الكلمات المنبرية البحتة.

و لكي تدرك مهمة هذا الشعر يجب أن تتبع المدى الذي كانت عليه الجزائر آنذاك من الشعور بالخيبة و الاستسلام للخرافات و الأوهام و العقد النفسية المتراكمة نتيجة لعاملين¹:
الأول: الغزو الداخلي الذي كان يشنه المشعوذون و الرجعيون.

الثاني: الغزو الخارجي الذي كان يقوم به أصحاب الأهواء و المطامع من أذئاب الاستعمار لقد عانى شعر المنابر كثيرا في سبيل بلورة الأفكار الإصلاحية كما قاسى أصحابه العذاب و التتكيل في سبيل تعريب الجزائر و إبقاء كيائها الوطني دون اندماج أو نوبان في الشخصية الفرنسية.

و قد كانت الوسيلة التي اعتمد عليها شعر المنابر في الاتصال بالشعب هي الصحافة ذات اللسان العربي التي أنشأتها حركة الإصلاح و غيرها، مثل (الإقدام) و (المنتقد) و (الشهاب). من تلك الوسائل أيضا الاجتماعات العامة التي تحمل طابع المناسبة مثل تدشين المدارس الحرة، و إحياء المواسم الوطنية و الدينية و الحفلات الخيرية و المدرسية، كما لعبت المدرسة دورا هاما كوسيلة لنقل الشعر إلى الجمهور ذلك أن أكثر شعراء هذه الفترة كانوا معلمين لهم اتصال مباشر بتلاميذهم. و كثيرا ما نظم هؤلاء الشعراء قصائد خاصة لهذا الغرض من هؤلاء عاشور الخنقي، عبد الرحمان الديسي، أبو اليقظان، الطيب العقبى، محمد ألقاني، السعيد الزاهي، الهادي السنوسي، أحمد الغزالي، الجنيد أحمد مكي².

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص36.

² أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات ص89

فصل تمهيدي:

و يجب التنبيه إلى أن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كلهم إصلاحيين في أغراضهم الشعرية، فقد تناولوا بالإضافة إلى ذلك، موضوعات أخرى غير الإصلاح، و لكن الطابع العام لشعرهم كان الإصلاح في ثوبه ألوقاري المتواضع.

و لا بأس من ذكر نموذج من هذا الشعر يصور الحقيقة التي وصفناه بها، و سنذكره من غير قصد من بين عشرات النماذج التي بين أيدينا، يقول الشاعر محمد اللقاني، أحد شيوخ

الشعر الجزائري الكلاسيكي من قصيدة نشرها في جريدة (الأقدام) الوطنية:¹

بني الجزائر هذا الصوت يكفينا	لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا
بني الجزائر هذا اللهو أوقعنا	في سوء مهلكة عمت نوادينا
بني الجزائر هذا الفقر أفقدنا	كل اللذائذ حينما يقتفي حيننا
بني الجزائر استيقظوا فلكم	أذاقنا اللهو و الإهمال تهويننا
بني الجزائر ما هذا التقاطع من	دون البرايا.. عيوب جمعت فينا
فقر و جهل و ألام و مسبغة	يا رب رحماك هذا القدر يكفينا

أما النموذج الذي نذكره دليلا على أن هذا الشعر لم يكن ملتزما للمنهج الإصلاحى في كل موضوعاته فهو للشاعر الخبير أحمد مكي. فقد نقلت فرنسا هذا الشاعر من وطنه إلى (السودان الفرنسي) آنذاك لإدارة مدرسة هناك، و لكنه حين أراد الاتصال بالإفريقيين جافوه لبياض بشرته و لأنه كان يضع قبعة على رأسه ضد الشمس و لكن الشاعر خاف من الوحدة فأتخذ غزالا أسماه " سهيلا " للاستئناس به فهو يقول من قصيدة طويلة مليئة بالتأمل عنوانها " شاعر في غربته ":

إن ملت العرب قالوا	أللعب وصال
أو ملت للسود قالوا	ذا أبيض مختال
أو ملت للبيض قالوا	صفاء هذا خيال
يا ليت شعري لماذا	هذا القلى و المقال

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 37.

و الأصل أصل فريد و المرء المرء آل
لما رأيت نفورا و الحب داء عضال
خطبت للوحش ودا ف جاء منه غزال

شعر الأجراس: 1925 - 1936¹

استبدال الشعر في هذه الفترة نعمة جديدة لم تخرجه عن النقطة التي بدأ أمنها - الإصلاح - و لكنها كانت نعمة تمتاز بالقرع و الاهتزازات المباشرة. و مرد هذا التطور من المنبر إلى الجرس أن الجزائر شهدت تحولات سياسية جذرية، و ميلاد دمجية العلماء المسلمين التي كانت حركة إصلاحية غير رسمية. كما شهدت الجزائر مولد الحزبين الشيوعي و الاشتراكي. و ظهرت جريدة (البصائر) و تقوت مجلة (الشهاب) و غيرها من الصحافة الوطنية. و خلال ذلك امتلأ الجزائري بالغبار و انعقدت في سماء الوطن كثير من السحب التي كان منها ما ينفشع سريعا و منها ما يدوم طويلا و منها ما ينعش الناس و يبشرهم بخير عميم و منها ما يعز فيهم و يبعث الكآبة و خيبة الأمل. على كل حال فإن هذه الزوابع و السحب قد زادت الشعب إيمانا بنفسه و بمستقبله و جعلته يستيقظ في غير تهور ويفتح عينيه على صباح جديد.²

يقول الأستاذ مالك بن نبي الذي عاصر هذه الفترة في كتابه (شروط النهضة) " و خلال العصر الذهبي بدأ عام 1925 و استمر حتى زوال المؤتمر (أي المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936) الذي مات في مهده، كنا نشعر بالنهضة و لم يكن زادنا في مبدأ رحلتنا سوى كلمات من الفصحى و بعض آيات من القرآن الكريم و هكذا ابتدأت على إثر هذه النهضة المدارس الأولى تشيد بسيطة متواضعة كتلك المدارس الأولى التي افتتحت في الغرب في عهد شارلمان و التي كانت أوصالا للمدينة الغربية " و يقول عن الأدب في نفس

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 38.

² محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية ص42

فصل تمهيدي:

الفترة " و لم يختلف الأدب الجزائري عن ذلك، فقد بدأ يصور تقدم البلاد في قصائد جديد فيها نشاطه بعد ركود طويل. كانت القصائد تلك تعني ربيع النهضة¹.

لقد اكتسب الشعر من هذا الجو طاقة جديدة و ذخيرة تعبيرية لم يحبها منذ حوالي قرن. و لذلك راح يدق الأجراس و يطلق الصفارات متمشيا مع التيار الوطني المتدفق من نفسية الشعب. و هو إذ يفعل ذلك لا يزج نفسه في مفهوم خاص أو يتناول قضية ما من جوانبها المختلفة و لكنه يظل صورة للقلق و الغيوم التي كانت تتلبد في سماء الجزائر بين الآونة و الأخرى.

و الحقيقة أن شعر الأجراس كان سلبيا إلى حد كبير، و لم يتغنى بأية نهضة على خلاف ما يرى الأستاذ بن نبي، لأن هذا الشعر لم يجد أهدافا و ركائز واضحة لتلك النهضة، و إنما وجد شعبا قلقا قد فتح عينيه على أشياء كثيرة لم يدرك بعد حقائقها، فكان شعر الأجراس صورة لهذه الحيرة.

اقرأ مثلا هذه اللهجة الحائرة بين الواقع الشعبي و بين الأمل الذي يضطرب في نفس الشعر نحو أفاق مجهولة ويقول محمد العيد أبرز شعراء هذه الفترة يخاطب الشعب الجزائري:²

أيها الشعب فيم توسع قهرا ليت شعري لأي أمر تقاد

ليت شعري متى تصبر عنيدا و لأهلك بالنفوس اعتداد

ليت شعري متى تمد لك الأيدي و تغري بحبك الأكباد

إن خير البلاد في وسع أهلها إذا أبدؤوا بها و أعادوا

و لعلك تلاحظ في غير عناء مقدار الحيرة التي تملكك الشاعر و التي تتمثل في

تكرار التساؤل (متى و ليت شعري) لا سيما حين تعرف أن هذا الشعر كان قد قيل قبل

1935، أي قبل انعقاد المؤتمر بنحو السنة.

و نفس الشاعر يقول في قصيدة أخرى تقترن فيها الحيرة باليأس القاتم:

¹ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية ص 30

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 39.

نح على أمة حظها تاعس
أمة مجدها دارج دارس
أمة ما لها قائد سائس
قد نبا سيفها و كبا الفارس
خصمها دائب فوقها دائس
و بنوها أخ لأخ باخس

و مهما يكن من شيء فإن الشعر قد تجاوز مع الشعب في هذه المرحلة الخطيرة و صور حياته كما هي دون تزيين أو إطرء. ومن شعراء هذه المرحلة **محمد العيد، الأمين العموري، جلول البدوي، و مفدي زكريا.**

شعر البناء: 1936-1945¹

آلت إمارة الشعر إلى محمد العيد فأخذها عن جدارة. غير أن الأصوات الأخرى لم تسكن و لكن طال عليها الطريق و نفذ عندها الزاد فاستحبت الراحة على العناء، و خلدت إلى نوع من الركود يشبه العناء، فانزوى البعض يبحث عن ذاته، و تساءل الآخرون عن مجهوداتهم يرونها تذهب هباء، و يئس قسم آخر من الشعر كطريق إلى التعبير الواضح فعادوا إلى النثر يقتدحون زناده وينحتون من صفره. و هكذا لم يبق من الأصوات الأخرى غير صوت **أحمد سحنون و مفدي زكريا، و محمد العيد** إذ تسلم هذه الإمارة لم يتخذها طريقا إلى الشهرة و التهريج، و لم يجد بها عن الطريق الذي عبده أسلافه و وضعوا فيه بعض القناديل، بل شق نفس الطريق و خاض عين الوحل، و لكنه استطاع و بقدرة عجيبة أن يضيق مصابيح أخرى باهرة الضياء و يعبد كثيرا من المسافات التي كانت ما تزال غير سوية².

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث

² أنظر أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد، الطبعة الثالثة، 1984. ص56

و قد ساعده على مهمته هذه تطور المفاهيم القومية بحيث انتفع بتجارب الماضي و وعي الحاضر و آمال المستقبل، كما أعانه ظهور المدارس الأدبية التي دخلت الشعر العربي عن طريق أدباء المهجر وبعض شعراء المشرق الذين وصلوا إلى الجزائر عن طريق فرنسا. على أن هناك قضية يجب أن لا تغيب عن الأذهان. ذلك أن محمد العيد لم يخلق في هذه الآونة بل كان موجودا وشاعرا قبل عام 1925 (ة لد سنة 1904) و لكنه قد بلغ في هذه المرحلة درجة من النضج و المقدرة على تمثيل إحساسات الشعب و وعي الأهداف الوطنية ما جعله بحق شاعر الشعب.¹

إن الجزائر قد عرفت في هذه المرحلة أكبر الهزات الوطنية و العالمية، و كانت مسرحا لانفعالات نفسية متعددة. فقد انعقد فيها لأول مرة مؤتمر شعبي حضره آلاف المواطنين واشترك فيه عدد من الهيئات الوطنية و تحدث فيه الخطباء عن تاريخ الجزائر و حاضرها و وصفوا آلام الشعب وآماله، و دعوا إلى مستقبل أفضل يرفع عن الشعب كابوسا طالما حجب النور، و نادوا (بالكيان الجزائري) المتميز باللغة المختصة فهتف لها الحاضرون و أيدوها. و أثناء هذا المؤتمر تكلم الشعراء فهيجوا الحماس وحركوا الحواس و حركوا من النفوس و تغنوا بالوحدة و النضال في سبيل الوطن.²

وبالرغم من فشل هذا المؤتمر من الناحية السياسية فإنه كان نقطة انطلاق كبيرة في تاريخ الكفاح الجزائري، ذلك أنه قد فتح أعين الشعب على أفاق رحبة لم تكن معروفة من قبل، نتيجة لما أثاره من قضايا و ما صقله من أفكار و ما بعثه من حماس. بالإضافة إلى أن هذا المؤتمر قد حفر هوة عميقة بين الاحتلال و بين الشعب، ففي الوقت الذي كان فيه دعاة الاندماج و الذوبان يعملون على تنفيذ خططهم بالحيلة و الدس و الإغراء كان المؤتمرون يحدثون الشهب عن (الذاتية الجزائرية) والتمايز بينها و بين الذاتية الفرنسية.³

¹ أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات ص45

² عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص69

³ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 11.

فصل تمهيدي:

و لم تكن هذه الهزات الوطنية متمثلة في عقد المؤتمر المذكور فحسب بل عاشت الجزائر أيضا الحرب العالمية الثانية التي اشترك فيها عدد كبير من الجزائريين و التي خلفت هي الأخرى انبثاقات شعبية و تطلعات نحو غد جديد. كما كان فشل المؤتمر السابق مبعث صراع فكري. فقد كثر الهمس داخل الأحزاب حول المستقبل و أشد التوتر بين الهيئات حول الطرق التي ينبغي إتباعها للوصول إلى الأهداف المنشودة. وكان ذلك جميعا قد ساعد الشعب على أمن يصبح حكما، و أن يتدخل فيما كان يعمل باسمه، و بالتالي أصبح الشعب قادرا على الاختيار و التوجيه.

و في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشاعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية و الوطنية النقية، و إلى التحرر من الماضي البغيض و نسيان الذات في سبيل المثل العليا. كما أخذ شعر البناء يواجه العدو بشيء من الصراحة و التسديد، و يبشر بما في الجزائر من طاقات مذكورة و ما فيها من خصائص تميزها وتجعل منها شخصية نموذجية. و من أجل هذه النظرة إلى القضايا الوطنية أسمينا هذا الشعر شعر البناء. يقول محمد العيد و هو يعرض بالخونة و الرجعيين:¹

قف حيث شعبك مهما كان موقفه
أولا فإنك عضو منه منحسم
تقول أضحي شتيت الرأي منقسما
و أنت عنه شتيت الرأي منقسم
أعدى عدى القوم من يعزي لهم نسبا
و يسمع القدح فيهم و هو يبتسم

شعر الهدف: 1945 - 1954²

بعد مجزرة 8 مايو 1945 التي ذهب ضحيتها أكثر من أربعين ألف جزائري حين كان الحلفاء يحتفلون بانتصارهم، اكتسب الشعب الجزائري تجربة جديدة نبهة إلى الحقيقة المرة و هي أنه لا أمل في التحرر من غير سلاح. و هذه المجزرة و إن خلفت جراحا و ألما كثيرة، جعلت الشعب ييأس من المحاولة السلبية و يكشف التي كانت تائهة في ضباب السنين. و

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 42.

² عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص65

يفضل تلك المأساة ظهرت في أفق الجزائر ألحان الحرية و الضحايا و الاستقلال و العلم الرفراف، إلى آخر هذه الرموز المقدسة لدى الشعب، التي لم تكن لتظهر لو لا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف و من ظهور تلك الرموز ظهر عدد آخر من الشعراء كان في طليعتهم الربيع بوشامة، و عبد الكريم العقون، وأحمد الغوا لمي، و موسى الأحمدى، و حسين حموتن، و الأخضر السائحي، و رغم ذلك فإن القيادة الشعرية كانت مازالت في يد محمد العيد، و سحنون و زكريا.¹

كما تتوعت موضوعات الشعر خلال هذه الفترة فكان من بينها قضية فلسطين، و أحداث الشرق العربي و غيرها من القضايا الاجتماعية المعاصرة و مع التطور في الموضوعات فإن الشعر لم ينس قط رسالته التعليمية و الإصلاحية مسبقا عند محمد العيد و سحنون الأحمدى، ففي عام 1951 نشر الأول قصيدة طويلة عنوانها (إلى العلم) يقول فيها:²

أراك بلا جدوى تضج من الظلم إلى العلم إن رمت النجاة إلى العلم
و هو في هذا يعود بفكره إلى ما قبل حيث يقول الشاعر ألقاني:
بني وطني هل من نزوع لأجداد فقد ركبوا للعلم سهوة ضطاد
أو حيث يقول الشاعر السعيد الزاهري:

توفر حظ الناس في العلم و الهدى و مازال منقوصا نصيب الجزائر
و لعنا الآن نستطيع أن نذكر بعض النماذج التي تلقى الضوء على ما قصدنا إليه من
(شعر الهدف). يقول أحمد سحنون يخاطب المعلم:

هات من نسل الحفي، خير عتاد و أدخرهم لغد جند جهاد
هات نشئا صالحا بين العلا و يفك الضاد من أسر الأعادي
إن في يمينك شعبا كاملا ينزف بين ظلم واضطهاد

¹ أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات ص 65

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 43.

لم يزل في القيد منهوك القوى منذ ألقى للأعادي بالقياد

و في قصيدة أخرى يخاطب التلميذ يقول الشاعر نفسه:

شعبك الموثوق لم يبق له من عتاد فلتكن خير عتاد

لج الاستعمار في طغيانه ظل يوم منه ألوان اضطهاد

فليكن حاديك تحرير الحمى إن تحرير الحمى للحر حاد

و لعلك تلاحظ أن بعض الكلمات و التعبير لها وقع خاص في هذه الأبيات مثل تحرير الحمى، جند جهاد، أسر الأعادي، لج الاستعمار في طغيانه، ينزف بين ظلم و اضطهاد... الخ.¹

و يقول عبد الكريم العقون: في لهجة أكثر وضوحا و أيسر لفظا:

بني وطني أعيد و مجد قوم أقاموه على أقوى عماد

و أدوا ما عليكم من حقوق لشعبكم و ذودوا كل عاد

و فكوا قيده لا تتركوه يعاني كل ظلم و اضطهاد

و الفرق بين هذا النموذج و الذي قبله أنه بينما استعمل الأول ألفاظا تقريرية هادئة استعمل الثاني ألفاظا أمرة تارة و ناهية تارة أخرى فيها حرارة التوجيه و صندوق الشعور بالموضوع. أنظر مثلا هذه الكلمات ذات الرنين الخاص: بني وطني، أعيدوا، أدوا، ذودوا، فكوا لا تتركوه... الخ. فكل هذه توهي لأول وهلة أن الشاعر كان يخاطب الجماهير في مظاهرة صافية.

أما النموذج الذي تقدمه لمجد العيد، فهو يدل على وضوح الهدف الذي بدأ الشعب يسعى له منذ الاحتلال. كما أنه يدل على أن الشعر قد بلغ الحماس أحيانا ما يجعله يلقي بهدوء الإصلاح جانبا و يدخل في المعركة السياسية بوجه سافر، يقول مجد العيد من قصيدة نشرها في جريدة (المنار) سنة 1950:²

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص 89

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 44.

- 1- حثوا الغرائم و أصدقوا الأمالا إن الزمان يسجل الأعمالا
 - 2- يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم فالعمر ساعات تمر عجالا
 - 3- الأمر طالا بكم فطال عناؤكم فكوا القيود و حطموا الأغلالا
 - 4- لا أمن إلا في ظلال مرفرف حر لنا عال ينير هلالا
 - 5- و الشعب ضج من المظالم فأنشدوا حرية تحميه واستقلالا
 - 6- من فوق جند بالعنيد من القوى يلقي العدو ويصمد استبسالا
 - 7- و إذا أراد الشعب مراده و لو أنه كالنجم عز منالا
- و لعل محمد العيد أول من صرح بالاستقلال و الحرية و العلم والجيش (والاستقلال) الوطني من بين إخوانه الشعراء، ذلك أن الشعراء الجزائريين - و هو منهم - كانوا يختبئون وراء الكلمات و لا الكلمات و لا يصرحون بما يودون.
- و لذلك كثرت في شعرهم العبارات المهمة، من ذلك لإطلاق الأسر على الاستعمار و الحمى على الوطن و الحمراء على الحرية و المجد على الاستقلال¹.

شعر الثورة: 1954

حين اشتعلت الثورة أذكت العواطف و هزت المشاعر الأقلام التي كانت من قبل مكبوتة، و فتحت أمام الشعر أفاقا ما كان يستطيع أن يحلم بها لو لا الدم و النار و الحديد. و قد تفجرت، نتيجة لذلك، عواطف الشعراء، بشعر ثوري عارم يسجل انتصارات الثورة و يشير بالاستقلال و الغد الحر، و يتغنى بالوطن و الحرية، و يشارك المحزونين والمتألمين، و يصمد الجراح و يكفكف الدموع، و يخلد الشهداء و الأبطال و الوقائع. هذه الطائفة من الشعراء كانت وليدة الثورة شعريا و لكن لم تكن وليدتها زمنيا، فقد كان بعض هؤلاء الشعراء موجودين قبل الثورة كما سبق الإشارة.

أما شعر هذه الفترة فيتذمر بالروح الوطنية المستقلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي. كما يتميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة، و

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 45.

يفتقر إلى الخيال و التأمل الخلاق. و من شعراء هذه الفترة نذكر أحمد الباتني، و محمد صالح باويه، و صالح الخرفي، و أبو قاسم خمار، و عبد السلام حبيب، و عبد الرحمان الزناقي. و نعتقد أن شيوخ الشعر لديهم إنتاج كبير يمثل روح هذه الفترة المجيدة من كفاح الجزائر و لكن لن نتعرض لشعرهم هنا لأن هدفنا هو التأريخ للشعر الحديث منتبعين مراحل وأصوله.¹

و فيما يلي بعض النماذج من هذا الشعر الحديث. يقول الشاعر عبد السلام حبيب من قصيدة له بعنوان (مصرع خائن) يتحدث فيها عن البطل محمد بن صادق الذي اغتال الخائن على شكال على مرأى من الآلاف في باريس و يتحدث فيها عن الروح الفدائية، و عن الذعر الذي أصاب الفرنسيين إثر الواقعة:²

خذها، و دمدم من مسدسه رصاص

خذها، فقد حان القصص

الويل لك

يا خائن الشعب الجريح

لن أستريح

حتى تموت سأقتلك

باسم الوطن

باسم الجراح الزاحفة

باسم الجموع الزاحفة

باسم الجزائر و النضال

خذها رصاصه تائر

حر الضمير جزائري

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص67

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 46.

أما الشاعر محمد صالح باويه فيقول في قصيدته (التائر):
يا رفاقي في الذرى، في السجن، في القبر، و في ألام جوعي
قهقه القيد برجلي يا رفاقي حدقوا فالثأر يجتر ضلوعي
يا جنون الثورة الحمراء يجتاح كياني و مغارات ربوعي
أقسمت أني بقيدي، بجروحي، سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح و تغدو شعلة تضرم أحقاد الدموع
و في ملحمة طويلة يتحدث الشاعر أبو القاسم خمار عن الشعب الجزائري مستعرضا
كفاح المغرب العربي، عنوان هذا الشعر (ظلال و أضاء):
ثار في ثورة إذا قيس بركان بهزات نارها كان يسيرا
ثورة تحمل الإبادة للبؤس و للعدل و السيادة بشري
و في قصيدة (سلاحنا و سلاحهم) يتحدث الشاعر صالح الخرفي عن فرنسا و
نضال الجزائر:¹

ملأت الأرض و الأجواء حديدا فكان العزم أقوى من حديد
فلسنا في الوغى جددا فتتلى عزائنا أساطيل الجنود
و لا عشاق دينار فتلوى أعنتنا بوارق من وعود
و لكن عيشة الأحرار نبغي و دون بلوغها نيل الخلود
زحفنا كالأتي فكنت سدا سلي خبر الآتي مع السدود
أما الشاعر عبد الرحمان الزناقي فيقول عن الثورة:
في كل يوم ثورة للثار في أرضنا كالرعد كالإعصار
في كل يوم ثورة و قادة ترمي الطغاة بأسهم من نار
و يقول أحدهم من قصيدة يخاطب فيها الجزائر:
يا أرضي المطلقة

¹أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 47.

نسرا يحض حرية
شعلة نور منبعثة
مازلت في الكأس يقية
شربوها موتا أو خيبة
و سنملؤها حرية
يا أرضي المطلقة
لا ألما، لا شكوى
أمضي في الأفق الأرحب
أفق الثورة
أخي الجرحه بالجرحه
و أطيري الموكب بالقرحة
لا ألما لا شكوى
يا أرضي المطلقة

دون أن ننسى الشاعر العظيم مفدي زكريا الملقب بشاعر الثورة الذي زلزل الاستعمار الفرنسي بشعره الفذ هذا الجزء لمفدي زكريا.¹

الاتجاه الجديد (الشعر الحر):

1- المرحلة الأولى: 1955 - 1962

يذهب أغلب الدارسين² حين يؤرخون لبداية ظهور الشعر الحر في الجزائر، إلى أن البداية الحقيقية الجادة لظهور هذا الاتجاه، إنما بدأت مع ظهور أول نص من الشعر الحر

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص 48.

² أنظر: د. صالح خرفي، الشعر الجزائري، ص 345. أيضا، صالح خرفي، صفحات من الجزائر، ص 237.

- د أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات الشركة الوطنية لنشر و التوزيع، الجزائر 1971، ص 85- 104- 112.

- د. عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث، ص 68،

فصل تمهيدي:

في الصحافة الوطنية و هو قصيدة " طريقي " لأبي القاسم سعد الله، المنشورة في جريدة البصائر بتاريخ 23 مارس من سنة 1955¹.

والواقع أنه قبل التسليم بصحة هذا الرأي، ينبغي أن لا نغفل تلك المحاولات التي سبقت تجربة سعد الله أو صاحبها مثل تلك التجربة التي كتبها رمضان حمود في 1928. و إذا كان الاعتبار الذي من أجله تميز نص " طريقي " هو إشكاليته الموسيقية، فإن نص " يا قلبي " (01) لرمضان حمود تجربة شعرية تتميز هي الأخرى بكونها قصيدة متعددة الأوزان لبحر معين من البحور الخليلية المعروفة و لقد كتب رمضان هذه التجربة بعد سلسلة من المقالات الواعية التي تناول فيها بالنقد الموضوعي واقع الشعر العربي، و دعا فيها إلى عدم اتخاذ الوزن و القافية ضرورة من الضرورات اللازمة للشعر، و إنما يجب أن يكون المقياس هو الصدق الفني حتى و لو جاء ذلك في قالب نثري كما أوضحنا ذلك سابقا.

و لن يقلل من أهمية دعوة رمضان حمود في هذا المجال كونها جاءت منفردة فكل البدايات الإبداعية كذلك، و لا كون صاحبها لم يستطع أن يشفع نظرياته بنماذج شعرية موفقة، فإن غيره من رواد التجديد من أمثال العقاد، و أحمد زكي أبي شادي لم يستطيعا التوفيق بين النظرية و التطبيق.

فإنما يعطي قيمة لنظريات رمضان، و تجربته في هذا الصدد، هو كونها من التجارب المقسمة بالسبق و الريادة النسبة للعالم العربي.

و كان يمكن لدعوة رمضان، أن تترك بعض الأثر في الشعر الجزائري لو لم تختطفه المنية بعدها بسنة واحدة، و هو في الثالثة و العشرين من عمره. أضف إلى هذا أن الظروف السياسية و الاجتماعية والثقافية 'أنئذ لم تكن لتساعد على تقبل هذه الدعوة أو تهتم بها، بل إن الدافع هو هذا الواقع نفسه الذي كان يتنفس في جو كلاسيكي صارم.

و هكذا ظلت هذه الدعوة المبكرة، بدون أن تترك أي أثر يذكر فهي من هذا الجانب تعتبر " ظاهرة متفردة في تاريخ الشعر الجزائري الحديث ".

¹ أنظر: البصائر ع 311، (1955 /03 /25).نقلا عن أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص62

و مهما تتعدد الأقوال حول أسبق نص ظهر في الجزائر من الشعر الحر¹، فإن الذي لا تتعدد حوله الأقوال هو أن الشاعر الجزائري الوحيد الذي اتجه إلى هذا الشعر عن وعي و اقتدار و حاول التجديد في الإشكالية الموسيقية للقصيدة و بنيتها التعسيرية، هو أبو القاسم سعد الله في حين ظلت محاولات الشعراء الآخرين من أمثال محمد الأخضر عبد القادر ألساحي، و الطاهر بوشوشي، و الغوا لمي و أبو القاسم خمار مبتسمة بالتذبذب والتردد، هذا من جهة تلك التجارب كانت إلى الشعر العمودي أقرب منها إلى الشعر الحر، هذا من جهة و من جهة أخرى، فإن التاريخ على حد تعبير سعد الله " لا يبدأ بقطعة أو محاولة، و لكنه يبدأ بحركة أو تيار، و لا شك أم ما يراه بعض الباحثين هو الأول قد يجد باحث آخر من سبقه في محاولات أخرى أما إذا كان التاريخ بحركة أو تيار فإن الرأي يظل دائما سليما حتى و لو اكتشفت بعض المحاولات المعزولة....".

و لعل الأهم من هذا هو الوقوف على العوامل والمؤثرات التي جعلت الشعراء الجزائريين يتجهون إلى هذا النوع من الشعر بعد أن كانوا لا يكتبون غير القصيدة العمودية ذات القافية المطردة أو المتروحة القوافي و نحسب أن من أهم العوامل إحساس الشعراء الجزائريين بضرورة التحول عن هذا القالب التقليدي، الهندسي الصارم، إلى قالب جديد يستجيب لمتطلبات الحياة المعاصرة، و يتفاعل مع التطورات السياسية، و الثقافية و الاجتماعية التي كانت تشهدها الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية.

فإن الاتجاه إلى هذا الشعر المتحرر من أسر القافية و صرامة الوزن استجابة طبيعية لما يحس به الشعراء الشباب آنئذ من مظاهر الكبت السياسي و الاقتصادي، و الجمود الاجتماعي و الديني، إنه يعبر قبل كل شيء عن " تمرد أصحابه و تحررهم من المفاهيم السائدة ليس في الشعر و حسب، و لكن في مختلف أوجه الحياة، أنه جزء من ثورة، أو شكل من أشكال الثورة...."².

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 64

² د. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، الحديث، ص 47.

فصل تمهيدي:

و يحدثنا سعد الله عن الدوافع الموضوعية التي جعلته يبحث عن قالب شعري جديد يتجاوب مع ما يشعر به داخل نفسه من " ثورة، ورفض، و تمرد " و ذلك حيث يقول " كنت أتابع الشعر الجزائري منذ 1947، باحثا فيه عن نفحات جديدة، و تشكيلات تواكب الذوق الحديث، و لكني لم أجد سوى ضم يركع أمامهم كل الشعراء بنغم واحد وصلاة واحدة، غير أن اتصالي بالإنتاج القادم من الشرق و لا سيما لبنان، و إطلاعي على المذاهب الأدبية و المدارس الفكرية، و النظريات النقدية، حملني على تغيير اتجاهي ومحاولة التخلص من الطريقة التقليدية في الشعر ...".

و الواقع أن حركة التجديد في الشعر العربي التي تؤرخ في أواخر الأربعينيات ... لم تكن في جوهرها إلا موقفا فنيا تحرريا أملتة مواقف و حاجات إلى التعبير عن الحياة الجديدة في أعقاب الحرب الكونية الثانية ...".

و لعل مما يؤكد لنا بأن الاتجاه نحو القصيدة الحرة كانت له دوافع ذاتية نفسية، هذا الارتباط الذي يلاحظ بين الاتجاه الرومانسي، و الاتجاه الجديد، فليس من قبيل الصدفة أن يكون كل الشعراء الجزائريين الذين حاولوا كتابة القصيدة الحرة، إنما كانوا في البداية يتجهون اتجاهها وجدانيا، و يكتبون القصيدة المتراوحة القوافي ذات المقاطع المتعددة، و نذكر على سبيل المثال من هؤلاء الرواد رمضان حمود، أبو القاسم سعد اله، أحمد الغوالمي، محمد الأخضر، عبد القادر ألسائحي، أبو القاسم خمار، الطاهر بوشوشي، محمد الصالح باوية، و غيرهم .

إن هذا التحول يدخل في الإطار الشعوري العام الذي يتسم به الوجدانيون من إرادة التغيير و التطور، والتعبير عنها بالتمرد على الأطر و القوالب الجاهزة. فمن المعروف أن الشعور بالفردية، و محاولة إثبات الذات من أهم ما تتميز به النفس الرومانسية. و قد أوضحت ذلك رائدة الشعر الجديد في الوطن العربي نازك الملائكة حيث تقول:

... كان على الشاعر الحديث أن يثبت فرديته باختطاط سبيل شعري معاصر يحب فيه شخصيته الحديثة التي تتميز عن شخصية الشاعر القديم إنه يرغب في أن يستقل و يبدع شيء لنفسه يستوحيه من حاجات العصر ..."¹.

... لقد وجد الشاعر الحديث نفسه محتاجا إلى الانطلاق من هذا الفكر الهندسي الصارم الذي يتدخل حتى في طول عبارته².

و يؤكد لنا هذه الظاهرة ما يلاحظ من تشابه بين موقف الشعراء الجزائريين و موقف الشعراء الرواد في المشرق العربي، فإن أغلبهم، كما تدل على ذلك على تجاربهم الأولى، إنما تتجه اتجاهها رومانسيا، و نذكر من بين هؤلاء: بدر شاكر السياب³. و نازك الملائكة⁴. عبد الوهاب البياتي⁵. و صلاح عبد الصبور⁶. و أحمد عبد المعطي حجازي. و غيرهم، و بالعودة إلى التجارب الرائدة التي كتبها سعد الله في هذا الاتجاه نلاحظ بجلاء كيف تتميز واضحا بنزعتها الرومانسية بل إن سعد الله كان في تصوره للتجربة الشعرية لا يختلف في شيء من حيث الرؤية و الموقف عن رؤية و موقف الرومانيين، كما أوضح ذلك بنفسه و هو يحدثنا عن قصيدته " المروحة " التي تعد إحدى تجاربه الرائدة في الاتجاه الجديد. يقول أنه بناها على " المشهيات و المصغرات الوجدانية والنغم الحاد الجارف والخيال الملون، و التجربة التي تؤدي للحواس الحرارة و تشبعها لذة و انفعالا، والمقطع الذي يكون هدهدات حائرة، و طمأنينة ناعمة ...".

و من أهم العوامل اندلاع الثورة التحريرية، في نوفمبر من سنة 1954 و التي تعتبر ثورة تعمقت المجتمع الجزائري في كل أبعاده الحياتية، و لم تكن مقتصرة على الجانب السياسي وحده كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان.

¹ نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار الآداب، بيروت، 1962، ص 42.

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص 45.

³ أنظر، ديوان بدر شاكر السياب، مقدمة ناجي علوش، دار العودة، بيروت، 1971، ص 40.....

⁴ أنظر، جليل كمال الدين، الشعر العربي و روح العصر، دار العلم لملايين، بيروت، 1964، ص 116.

⁵ أنظر أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، ص 40.

⁶ أنظر صلاح عبد الصبور، الناس في بلادي، دار الآداب، بيروت، 1957، ص 21.

و بما أن الشاعر ذو حس مرهف، فإنه كان من أول الناس شعورا بإرادة التغيير و التطوير، و الإفصاح عنهما بما يتناسب مع هذا الانقلاب الذي يهز أركان نفسه و هو يعيش زخم هذه الثورة بكل حرارتها و بكل أبعادها. و لابد من الربط بين روح و شكل هذا الشعر كما يقول ذلك سعد الله " ... إنه بقدر ما كان متحررا من القافية و الوزن و غير ذلك من أشكال التحرر، بقدر ما كانت روحه أيضا متحررة رافضة للوجود الاستعماري، و التخلف العقلي و الجمود الأدبي الذي كان يجتره أدباء الجزائر المتقدمون عن زمن الثورة المسلحة، باستثناء بعضهم طبعاً... " ¹.

و يؤكد لنا هذا الرأي ما نلاحظه في هذه النصوص الرائدة التي يجمع بينها جميعا روح ثورية، رافضة، متمردة على الواقع الاجتماعي والسياسي.

نلاحظ ذلك في نص سعد الله " طريقي " ² الذي يوضح فيه طريق الثورة الذي اختاره و في نص أبي القاسم خمار " الموتورة " ³.

الذي فيه لاجئة فلسطينية و نص الغوالمي " أنين و رجيع " ⁴، الذي يعبر فيه للواقع المرير، و محمدا لصالح باوية في قصيدته " الصدى " ⁵، التي يهديها إلى طفلة فلسطينية، فإن أمثال هذه التجارب الصادرة كلها في السنوات الأولى لاندلاع الثورة التحريرية تؤكد مرة أخرى بأن المضمون الثوري من العوامل النفسية التي تدفع الشاعر المتطور المتجدد إلى البحث عن قالب جديد متحرر يعبر من خلاله عن رفضه لقوالب المتوارثة المألوفة.

و يعتبر العامل الثقافي من أهم العوامل دفعا لهذه التجارب إلى البروز و لعل النموذج الشعري الوافد من المشرق العربي يجيء في مقدمة العناصر إذا ذكر العامل الثقافي. فيحكم تواجد أغلب الشعراء الشباب للدراسة بتونس و المشرق العربي تهيأت لهم الفرصة الكافية للإطلاع على هذه التجارب الأدبية، و الاحتكاك بالمدارس النقدية عن قرب، خصوصا و أن

¹ . أبو القاسم سعد الله، في التجربة الأدبية، ص 4.

² أنظر: أبو القاسم سعد الله، ثائر و حب، ص 11.

³ أنظر: أبو القاسم سعد الله أوراق الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1967، ص 117.

⁴ أنظر، البصائر، ع 315، (22 / 04 / 1955)، نقلا عن أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 66

⁵ أنظر: أبو القاسم سعد الله، أغنيات نضالية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 33.

هذه التجارب الجديدة من الشعر الحر كانت تثير نقاشا حادا، و معارك أدبية ساخنة على ظهر الصحف و المجلات أو في الندوات و الأمسيات. إن ذلك المناخ الثقافي النشط كان، و لا شك يثير اهتمام الأدباء و الشعراء و النقاد و الجزائريين، و يجعلهم يتابعون تطورات هذه الحركة و يفكرون في قضاياها، و يحاولون بالتالي المشاركة فيها. فيذكر لنا " سعد " بأن من أهم العوامل في اختباره الشعر الحر أثناء توافده بتونس، تعرفه على بعض الأدباء و الشعراء الشباب التونسي، و تكوينهم معا رابطة أدبية أسموها " رابطة القلم الجديد " يدور الحديث فيها عن الإنتاج الأدبي، و ما تنتشره المجلات و الجرائد في ميدان الشعر الجديد. و كانوا يقرؤون فيها إنتاجهم الشعري " و جميع هؤلاء كانوا كما يدل على ذلك اسم الرابطة متمردين إلى حد ما، شاعرين بالكبت الاجتماعي و السياسي و الأدبي ¹.

و في القاهرة وجد مجال أرحب، و توثقت صلته بالشعر الحر بربط علاقات أدبية مع شعراء مصر " المتمردين عندئذ " أمثال عبد المعطي حجازي و صلاح عبد الصبور، و عبد الرحمان الخميسي، و نجومهم بالإضافة إلى نقاد حديثين أمثال محمود أمين العالم الذي كتب له مقدمة ديوانه " أغاني الجزائر ". و رجاء النقاش، و غالي شكري. كما كان يشارك في الندوات الأسبوعية التي كانت بعض الشعراء الشبان الدارسين بكلية دار العلوم، حيث يقولون ما يكتبونه من شعر حر ².

و إذا كان من الصعب على المرء أن يحدد ملامح الشعراء المشاركة في إنتاج الرواد أمثال سعد الله، و بارية، فيضع يده على مواصفات شعرية معينة، فإن الذي لا نشك فيه هو أن الصلة الأدبية عن طريق القراءة كانت وثيقة متواصلة، و كان التأثير واضحا ببعض الشعراء المشهورين أمثال نزار قباني، و الفيتوري، و بلند الحيدري ، و بدر شاكر السياب، و نازك الملائكة، كما سنوضح ذلك في مكانه.

ويقر سعد الله بأنه كان يتابع و هو طالب بالقاهرة آثار السياب، و نازك الملائكة ويعجب بنزار قباني، و يقدره لأنه مدرسة قائمة بذاتها ، وكانت صلة سعد الله بمجلة الآداب البيروتية ،

¹ أبو القاسم سعد الله، في التجربة الأدبية، ص 03.

² أنظر: نفسه ص 4.

فصل تمهيدي:

ومشاركته فيها قراءة و نشر مما جعله على اتصال دائم بالشعر الجديد الذي كانت الآداب تحتضنه بالنشر وترعاه بالتوجيه والنقد وتكون أهم مجال لإذاعته في الوطن العربي قاطبة وأحس أن مجلة الآداب بما عرفت به من اهتمام خاص بنشر الشعر الحر من جهة، و الترجمة عن الآداب الأجنبية، ولا سيما الأدب الفرنسي قد هيأت الفرصة الكافية ليطلع الشعراء الجزائريون من خلالها على هذا الأدب الذي حرّموا منه.

فإذا تميز الشعراء الرواد في المشرق العربي مثل: السياب، و صلاح عبد الصبور، و ألبياتي، و نازك الملائكة بقراءتهم المباشرة في الآداب الأجنبية، فإن الذي تميز به الشعراء الجزائريون هو عدم إطلاعهم على هذه الآداب التي عن طريق الترجمان العربية بحكم جهل أغلبهم للغة الأجنبية و لا نكاد نستثني من هؤلاء غير الطاهر بوشوشي الذي كان له إطلاع واسع على الشعر الفرنسي، و دراية بمشاهير الشعراء كما أوضحنا ذلك سابقا.

و لكن هذا لم يصنع الشعراء الجزائريين من أن يتصلوا بهذه الآثار بواسطة المجلات و الصحف المشرقية، و على رأسها " الآداب البيروتية " بل لم يمنع من أن يهتم ذوو الثقافة العربية فيكتبوا من أهم التيارات التي نشرتها البصائر.

و تدل بعض المتابعات النقدية الصادرة داخل الوطن على أن الأدباء الجزائريين كانوا على اتصال دائم بهذا الإنتاج الجديد يهتمون به، و يحاولون تأثره، رغم الحصار المضروب من طرق المستعمر الفرنسي على الثقافة العربية.

غير أن هذه البدايات لم تتسم بالتحول الحاسم من شكل إلى شكل و من بنية تعبيرية قديمة إلى بنية تعبيرية جديدة، و إنما بقيت حالات من التذبذب و التردد في الممارسة بين الشكلين الحر والتقليدي، فإن بعض هؤلاء الشعراء مثل أبي القاسم خمار، و محمد الأخضر عبد القادر ألسائحي، و أحمد الغوالمي، و الطاهر بوشوشي، ظلوا يتعاملون مع القصيدة الحرة بطريقة حية مترددة، بل لعل نسبة كتاباتهم على الطريقة العمودية أكثر و أوفر منها على الطريقة الحرة و هذه ظاهرة طبيعية في كل البدايات الإبداعية، يمكن أن نجد نظيرا لها

في بعض البلاد العربية الأخرى و يمكن أن نتشهد بموطن الشعر و مهد انطلاقات التجديد، العراق، فنذكر تجارب السياب، و نازك الملائكة التي تغلب عليها الشعر العمودي. و كان طبيعيا أن يكون التجديد وليد تجارب تتراوح بين الإخفاق و النجاح، و أن هذه المحاولات في البحث عن أسلوب جديد يتماشى مع متطلبات العصر، و يوضح بأن التجديد لا يكون بالطفرة المباغثة.

و من هنا يمكننا القول مع الدكتور ركيبي، " بأن تجربة الشعر الجزائري في هذا الشكل أثناء الثورة كانت محدودة في أشخاصها، و في إنتاجها و في مستواها، نظرا لظروف كثيرة، منها أن الشعراء كانوا في بداية تفتحهم، و أن إطلاعهم على الشعر الجديد كان محدودا نسبيا إلى جانب ظروفهم الخاصة أثناء الثورة بحيث نستطيع القول بأنهم مارسوا التجربة و قول الشعر في ظروف جد صعبة..."¹.

و هكذا نخلص إلى القول بأن الاتجاه إلى القصيدة الحرة من طرف الشعراء الجزائريين لم يكن وليد محض لظهور هذا الشعر في المشرق العربي أو هو نابع عن إرادة مجردة لمتابعة التطور الشعري الذي اتخذ له في هذه الفترة شكل الظاهرة في الساحة الأدبية قد يكون لهذا أثر في نفوس الشعراء الجزائريين، بحكم الصلة الروحية الوثيقة التي تربط بين أجزاء الوطن العربي، و لكن العامل الأقوى، فيما نرجح نبع قبل كل شيء من حاجات نفسية ذاتية، دفعت الشعراء الشباب إلى البحث عن قالب جديد يتماشى مع ما يحسون به داخل أعماقهم من إرادة التطوير، و التغيير، و قد ارتبط كل ذلك بطبيعة الحال بالحياة الجزائرية العامة التي أخذت تشهد تحولا هاما و جذريا بعد أحداث الحرب العالمية الثانية و كانت الثورة التحريرية النتيجة الخدمة لها.

كما أن حاجة الجزائر الفتية إلى الإطارات الإدارية، و الموظفين المعربين، جعلت بعض الشعراء ينشغلون بمسئولياتهم الوظيفية، فقللوا من نشاطهم الأدبي، و إبداعهم الشعري، و هو ما حدث مع أبي القاسم خمار و الغوالي و الطاهر بوشوشي.

¹ د. عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، ش. و. ن. ت الجزائر 1982، ص70.

على أن الركود الثقافي العام كاد يتخذ شكل ظاهرة شاذة في هذه السنوات الأولى من الاستقلال و قد تمثل ذلك في فقدان الصحافة الأدبية ، و عدم وجود إتحاد يجمع الأدباء و قلة النوادي الثقافية، و إهمال العناية بالجانب الثقافي و تظاهراته من أمسيات، و محاضرات، و ندوات، و قلة تواجد الكتاب العربي في الأسواق، و ضعف طبع و نشر الإنتاج الوطني، لعدم تشجيع الشعراء و الأدباء ماديا و أدبيا حتى ينشروا طوال الفترة الممتدة ما بين (1962- 1970) إذا لم تتجاوز حصيلة هذا الإنتاج خمس عشرة مجموعة شعرية بما فيها المطبوع خارج الوطن ، أي بمعدل ديوانين في السنة الواحدة.

أضف إلى هذا اعدام الجمهور المتذوق للشعر، تحت تأثير الوضعية التي كانت تعيشها اللغة العربية في السنوات الأولى من الاستقلال، و إذا كان الجمهور الشعري منعما أو يكاد، فكيف يتوقع وجود جمهور يتذوق الشعر الجديد الذي ظل حتى هذه الفترة يعاني من البحث عن جمهوره في المشرق العربي الذي يسبق الجزائر بإمكاناته و وسائله بأشواط واسعة فكيف يبذل الشاعر قوة قد فقد حافزين هامين هما القارئ المتذوق و الناقد المتابع؟ إن هذه الظواهر أصابت الحياة الثقافية في الصميم، مما جعل بعض الكتاب يعالجونها حائرين¹، و ذهب بعضهم إلى حد وصفها بأنها أزمة ثقافية .

كما نحسب أن الدوافع النفسية التي كانت تدفع الشعراء الجزائريين إلى قول الشعر في فترة الثورة التحريرية لم تعد شبيهة بتلك الدوافع التي تدفعهم إلى قول الشعر في عهد الاستقلال، فق كانت الثورة التحريرية في حد ذاتها مفخرا قويا للإبداع، و كان الشعراء أثناءها يؤدي وظيفته سياسية و إعلامية هامة، و كان الشعراء يكتبون لتغطية الأحداث الساخنة متفاعلين معها معبرين عن الانتصارات و المآسي معا، يحدوهم في كل ذلك إحساس فياض، و حماسة عارمة، و لكن هذه الحماسة و ذلك الإحساس خمدتا قليلا تحت تأثير الواقع السياسي المؤلم الذي شهدته الجزائر في بداية الستينات بعد أن طوحت بزعاماتها حمى

¹ أنظر: مثلا، د. أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب (ليبيا تونس 1976، ص 143).
- شريط عبد الله، من واقع الثقافة الجزائرية، الجزائر، ط 2، 1981.
- د. محمد مصاييف، دراسات، في النقد و الأدب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.

الكراسي، و ألفت بهم في دوامة الخلافات و الصراعات و ذلك ما جعل بعض الشعراء الكبار بفضل تحكيم قلمه على التقني بالخلاف.

و من أهم الأحاسيس النفسية فقدان التحدي بعد انهزام الخصم، و هو المستعمر الفرنسي الذي كان الشاعر الجزائري يكتب ليتحداه وليعبر عن صمود شعبه و عن هذا الإحساس الذي خمد، نستشهد برأي أحد الشعراء الرواد الذين كتبوا الشعر الحر في مرحلة الثورة.

ثم لأن في عهد الاستقلال إلى الصمت المطبق يقول أحمد الغوالمي: " ... إننا كنا نهاجم به (أي الشعر) الدخيل و أذنابه، و ندافع عن كيان الأمة في تحرير وطنها، و لغتها، و دينها، كنا نهدم كل وضعية يريد الاستعمار أن يجعلها قانونا لنا، أما اليوم فلم نجد ما نحاربه...".

و أمام هذا الفراغ لم يظهر جيل من الشباب ليخلق جيل الرواد، و ليواصل العطاء، و يطور تجارب المرحلة الأولى و يضيق إليها.

فقد كان من الصعب، و الحالة هذه أن ينضج هذا الجيل خلال هذه الفترة الوجيزة من الاستقلال.¹

علما بأن هؤلاء الشباب الذين ينتظر منهم تسلم راية الشعر، كانوا صغار السن، محدودي التجربة، لم يتكونوا تكونا مدرسيا طبيعيا، لأن الاستعمار الفرنسي كما هو معلوم؟، أغلق المدارس العربية كلها أثناء الثورة أو قبلها، أن يعتمد على نفسه في تكوين ثقافته الشعرية، و ينسج على منوال النماذج التي كانت تصله من الشرق، و يكتفي في أغلب الحالات بثقافة ضحلة سطحية، مما ترك أثارا سلبية واضحة على الإنتاج الشاب و لا سيما في هذه المرحلة.²

فهذه الأسباب و غيرها، جعلت الحركة الشعرية في الجزائر تمر بفترة ركود مستعصية، و تفتقد بالتالي التجارب الشابة الجيدة، و ذلك ما دفع بالدكتور " ركيبي " الذي كان مشرقا

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص69

² أبو العيد دودوا، كتب و شخصيات ص66

إبانها على صفحة الأدب و الثقافة بجريدة الشعب اليومية إلى القول و هو يعلق على التجارب الشابة الرديئة التي كانت تصله، أنه حائر " بأي شيء يبدأ، أبالعمودي الذي انكسر عموده؟ أم بالشعر الحر الذي لم يرتفع إلى مستوى النثر الفني الجميل؟.

المرحلة الثالثة: (1975 /1968)

شهدت الجزائر في أواخر الستينات و أوائل السبعينات تحولات هامة في الميادين الاجتماعية والاقتصادية، و الثقافية و شهدت أحداثا ثورية و إنجازات معتبرة مثل تأميم الثروات المعدنية، و الثورة الزراعية، و التسيير الاشتراكي للمؤسسات، و انتشار التعليم و ديمقراطيته، و الطب المجاني، و غيرها من التحولات الهامة التي تدخل في إطار الثورات الثلاث، الصناعية و الزراعية و الثقافية.

و في ظل هذه التحولات أخذت بوادر نهضة ثقافية تحل محل الركود الثقافي تحل محل الركود الثقافي الذي كان سمة من سمات المرحلة السابقة، و ظهرت إلى الوجود صحف و مجلات وطنية جديدة راحت تفتح صدرا واسعا للإنتاج الأدبي و الشعري الشاب توجهه و ترعاه، و تحتضنه. و من هذه الصحف المتخصصة، مجلة آمال¹، و الشعب الثقافي ثم الأسبوعي²، ظهرت كلها لتعاضد " المجاهد الثقافي "، و " المجاهد الأسبوعي"³، و " القبس ".

و لا نكاد نصل إلى سنة 1977 حتى نلمس أثر هذا التطور الثقافي في الكتابات الصحفية، فنراها تتحدث عن " التنافس الإيجابي بين المؤسسات الثقافية في كامل القطر، و في العاصمة بصفة خاصة "، و إلى جانب هذه التحولات الإيجابية داخل الوطن، كانت هناك تحولات سلبية خطيرة في الساحة العربية من أشدها و أخطرها هزيمة جوان 1967 التي أصابت الإنسان العربي في كرامته. فإن هذه النكسة قد جعلت غير واحد من الشعراء الشباب يتجهون إلى الشعر يعبرون من خلاله عن مشاعر السخط، و المرارة.

¹ الشعب، ع 916، (26 / 11 / 1965). نقلا عن أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص 68

² صدرت مجلة آمال، عن وزارة الإعلام في سنة 1969، و تخصصت في نشر أدب الشباب.

³ صدر العدد الأول من " المجاهد الثقافي " عن دار المجاهد الأسبوعية في أول جوان 1962.

و أمام الفراغ الذي شهدته المرحلة السابقة، و خلو الساحة الأدبية من الإنتاج الشعري الجديد. و بحكم سنة التواصل و التعاقب بين الأجيال، ظهرت فئة من الشعراء الشباب راحوا يفرضون أنفسهم في الأوساط الأدبية و على ظهر الصحف و المجالات، على اختلاف بينهم في المستويات الفنية، و التجارب الشعرية و الحصيلة الثقافية.

فظهرت أسماء جديدة لم تكن معروفة من قبل، برز بينها اتجاهات اثنان اتجاه يكتب الشعر العمودي و الحر، و يحاول التجديد في إطاره، مثل مصطفى الغماري، و محمد رقطان، و جمال الطاهري، و عمر بو الدهان، و محمد ناصر، و مبروكة بو ساحة، و عبد الله حمادي، و رشيد وزاني، و جميلة زنير، و غيرهم.

و اتجاه انصرف إلى الشعر الحر، و أعلى القطيعة بينه و بين الشعر العمودي مثل: أحمد حمدي، و عبد العالي رزاق، و أزراج عمر، و حمري بحري، و أحلام مستغانمي، و جروة علاوة وهبي، و محمد زيتلي، و غيرهم.

و على الرغم من الوضعية الثقافية التي تبدو مواتية إذا ما قيست بالمرحلة السابقة، فإن الواقع يدل على أن حركة الشعر الحر لم تستطع أن تفرض نفسها على الساحة الأدبية. و لم تستطع الاتصاف بالنضج و النماء الكاملين، فقد واجهتها صعوبات جمة، و يبدو أن هذه الصعوبات نتيجة لرواس المرحلة السابقة التي أوضحناها¹.

و نحسب أن من أهم الأسباب التي جعلت الشعر الحر يسير ببطء شديد. هذا الإنتاج الذي كان يقدم من طرف الشباب نفسه، فعلى الرغم مما اتسمت به نفوس هؤلاء الشباب من حماسة و طموح، و تطلع إلى الريادة الشعرية في البلاد، فإن تجاربهم الشعرية - ككل بداية - كانت وما تزال في حاجة إلى تعميق و صقل، و مران، فإن تكونهم الثقافي و الشعري لم يساعد الكثير منهم على تقديم نماذج طيبة.

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص 87

فصل تمهيدي:

أضف إلى ذلك ما يتصف به بعضهم من كسل أو غرور، جعلهم يكتفون بثقافة شعرية سطحية ليس لها جذور أصلية في الشعر العربي القديم الأمر الذي جعل أغلبية هذا الإنتاج لا ينال رضا القراء، و لا يجد من نفوسهم المكانة المعتبرة.

و كان للجمهور المتلقي دخل كبير في عدم تشجيع هذه المواهب، فالجمهور الحقيقي باللغة العربية عامة كان و ما يزال ضئيلا والمتذوق لهذا الشعر الجديد أضال فبحكم تعود دفئة كبيرة من المتلقين على موسيقى الشعر العمودي وارتياحهم له، كان من الصعب خلق جمهور جديد في مدة زمنية وجيزة يتقبل الشعر الحر بديلا.

و الواقع أن الشعر الحر بإيقاعه الجديد يفشل - و لا سيما عندما يواجه الشاعر الجمهور - على إيجاد هذه الصلة النغمية التي تعود الجمهور أن يجدها في القالب التقليدي، و التي تصل بينه و بين الشاعر مقدما، في حين لم يجد الجمهور في الشعر الجديد سوى نغم ضئيل هو التفعيلة الواحدة، و قد يفاجأ المتلقي في داخل القصيدة الواحدة بتغييرها¹.

و من ثم ظل الشعر العمودي هو المشكل للذوق العام لمتلقي، والتأثر بألباب الأغلبية الساحقة منهم، حق عدت هذه الظاهرة من طرف أحد الدارسين الشباب² " عقبة تقف في وجه الجديد، و كأن التصادم ليس بين نص قديم و نص جديد، و إنما بين المتلقي و المبدع، " فقد تعود المتلقي أن يتلقى النصوص الشعرية دون البحث عن الجديد فيها "، و من هنا يذهب هذا الدارس، إلى أن " تشكيل الذوق أهم و أخطر من أي شيء آخر...".

و يبدو أن المتلقين المتعودين على موسيقى الشعر العمودي لا ينجحون في هذا الجيل القديم الذي نشأ مع هذا النوع من الشعر الرتيب الذي تعودته أذنه، بل نجد من بين الشباب المدرسي و الجامعي نفسه فئة عريضة ظلت ترفض هذا الشعر الجديد، و يقول أحد الشعراء الشباب و هو يتحدث عن عوائق الشعر الحر في الجزائر: " كلما تحدثت إلى زملائي في المدرسة عن تجربة الشعر الجديد ضحكوا مني، و كأنني أحدثهم عن نزول

¹ أنظر: مصطفى طواق، الأدب الجزائري في عهد الاستقلال، الشعب الأسبوعي، ع 1، (24 / 04 / 1975)، ص 7.

² أنظر: مقدمة بدر الدين، في ديوان الناس في بلادي، لصلاح عبد الصبور، ص 12.

فصل تمهيدي:

الإنسان على سطح كوكب الزهراء، أو عن اكتشاف علمي خطير... " و لا بد من القول هنا أنهم من الساخطين على ما يسمى بالشعر الجديد...¹ فهل يعود رفض هذا الشعر من طرف الجيل الجديد إلى المناهج الدراسية التي يزعم " بأنها لم تكن تولي أية أهمية للشعر الحر... "و أن أستاذة الجامعة يطلبون من طلبتهم " ألا يقربوا من هذا النوع من الشعر، لأنه يفسد حاسة التذوق لديهم...".

يبدو أن مناهج الدراسة و مقرراتها في تلك الفترة من الأسباب التي جعلتهم يعتقدون بأن " هذه الأوزان الجديدة لا تناسب قداسه لفتنا في نظرهم .."².

و الواقع أن النظرة التقليدية كانت و ما تزال تولي النصوص القديمة أهمية كبرى، و تهتم بالشعر الجاهلي أكثر من اهتمامها بالشعر الحديث والمعاصر " و هو ما جعل كثيرا من الشباب المزدوج الثقافة يكادون لا يستطيعون أن يذكروا لنا إلى جانب بود لير، و رمبو، و موليس، سوى شعراء المعلقات و من شبابهم... أما معرفتهم للشعر العربي الحديث فترجع في معظم الأحيان إلى صدق المطالعة و المجهود الخاص...".

و كان لغياب الحركة النقدية البناءة، و انعدام الناقد المتخصص أثر واضح في ضعف مسيرة الحركة الأدبية عامة، و الشعرية خاصة، فقد بلغ الضعف بالحركة النقدية مبلغ " التآزم الحاد "على حد تعبير الدكتور محمد مصايف، و الحق لقد ترك هذا الفراغ مجالا لظهور كتابات تتجه اتجاها لا يخدم الحركة الشعرية، و إنما هو يخدم قضاياها مشية، و قد اتصفت أغلب تلك الكتابات ببعض السلبيات منها اتصافها بالروح الأسرية، و النقد الإخواني و التعصب الإيديولوجي، و الموقف المسبق من النص تأييدا، أو إنكارا و افتعال التظاهر بالتقدمية، و الدفاع عن المكاسب الثورية و الاشتراكية " و كانت النتيجة أن أضحي النقد رؤى ضبابية لا تعتمد على مقاييس فنية صارمة، مما فسح المجال بعد سنة 1972 على حد تعبير عمر بن قنية " لظهور اتجاه غوغائي ".

¹ جروة علاوة وهيبي: لقاء مع أفكار صلاح عبد الصبور المجاهد الأسبوعي، ع 572، (08 / 08 / 4971)، ص 26.
² الشعب الأسبوعي، نظرة في الحركة النقدية، ع (21 / 04 / 1977).

... و هكذا ظلت الحركة النقدية في الجزائر حتى سنوات أخيرة في حاجة إلى نقد منهجي شامل يتصف بالموضوعية و العفء و يتجرد من المجاملة و التحزب و يتعامل مع النص مباشرة دون اهتمام بصاحبه، وانتمائه الفكري.

كما ساعدت الكتابات المغرضة على خلق جو من عدم الثقة بين الأجيال، بين من يطلق عليهم الشباب، و من يطلق عليهم الشيوخ، أو الكبار و الصغار، هذا الجو الذي يصفه أحد الشعراء الشباب آنئذ بأنه " أزمة حقيقية " و هو يردها في تقديره إلى جانبين اثنين.

جانب النقاد الذين ينظرون إلى الناشئين نظرة الازدراء بحيث لا يولون أدنى اهتمام لإنتاج أدباء المستقبل، " و انزواء الشعراء الكبار في بروجهم العاجية جعلهم لا ينظرون إلى غيرهم ... " ¹ و جانب الناشئين أنفسهم الذين أصيبوا بخيبة أمل فكان منهم من اتصف بالغرور و منهم من يأس من نشر إنتاجه بعد أن لم يؤبه له من طرف الصحافة الوطنية، و منهم من راح يشق طريقة صامدا رغم العقبات و هم فئة قليلة نادرة.

إن انعدام الحوار و فقدان الاتصال الموضوعي بن النقاد و الشعراء الكبار و هم الأقدمون تجربة من طرف، و بين الشباب الناشئ من طرف آخر، جعلت أحدهم يدعوا الشعراء " أن يناضلوا في محاولة لإجبار الأدباء الكبار على الاعتراف بالأدباء الشباب، و الاهتمام ببعض إنتاجهم الأدبي على الأقل ...".

و يذهب شاعر آخر إلى أن الحل ليفرض الشباب إنتاجهم من الشعر الحر يجب أن يكون " ثورة و تمردا، و عصيانا ".

و إذا كان الصراع بين القديم و الجديد أمرا طبيعيا فإن بعض الكتابات المتتوالفة لهذه الظاهرة توحى، بأن الحديث عن الصراع في كثير منها مفتعل مبالغ فيه.

إن الاعتداد بالنفس المبالغ فيه أحيانا من طرف الشباب ،تقابله الإشارات المبالغ فيها تجاههم من طرف الشيوخ، عنصران أديا إلى أن تتعكس آثارهما إلى انعدام المناقشة

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص69

فصل تمهيدي:

الموضوعية البناءة، و إن وجدت فهي مناقشة الحد الواحد، أي أن كل طرف يناقش نفسه، و يتهم الطرف الآخر و يرفض مناقشة الطرف الثاني¹ و تحت تأثير بعض الكتابات اليسارية التي اتخذت الانتصار للشعر الحر في الوطن العربي واجهة للمذهب السياسي، و تحت تأثير بعض الكتابات ذات الطابع الهادئ لتراث، و لا سيما ذات النزعة الماركسية داخل الوطن، انفصل بعض الشعراء الشباب عن الآثار الشعرية التراثية، و أصبحوا ينظرون إلى كل ما له علاقة بالتراث أو الدين نظرة ضيقة غير موضوعية، و راح بعضهم يدعو صراحة إلى الانفصال عن التراث القديم.

عربيا كان أم جزائريا بدعوى عدم تماشيه مع متطلبات العصر، مما له انعكاسات سلبية و لا شك في المستوى الفني لهذا الإنتاج الشعري الشاب، فنجد أزواج عمر، يحكم و بكل تسرع و بطريقة عاطفية مبالغة بأن كل الشعر الجزائري الصادر قبل السبعينات " شعر تراثي " لم يحمل معه أي تجديد مطلقا لأنه ظل حبس السجع (كذا)، و الثقفية التي لا تخدم الموضوع والرؤية...².

و يحكم على الشعر الجزائري الصادر أثناء الثورة " بأنه إنتاج أمين لأشكال القصيدة العربية الإنحطاطية... " و أنه شعر لصيق بالأرض لم يحدث زلزلة ولم يعبر عن نبض الثورة، و لم يشجب كل مد مضاد للثورة... ".

و من أجل هذه الأحكام التي تنبئ عن تحيز و جهل واضحين يعلن " لأزواج " بأن علاقة الشباب بهذا التراث الشعري منعدمة بل أن هذه العلاقة لا يمكن أن تحدث و ذلك حيث يقول: " ... نحن كشبان و أبدأ بنفسي لم نستعد من الشعراء الجزائريين، لقد قرأت ما نشر، و ما طبع، فلم أجد ما يشدني لأبدأ نواة جديدة عبر هذا التراث الذي كتب قبل مولنا ما يقودنا إلى القمة، و لا ما يساعدنا إلى الوصول إلى الأعماق... ".

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص72
² عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص80

و أما " أحمد حمدي " فيصر على الشعر الجزائري حكما لا يقل قساوة عن حكم زميله فهو يرى بأنه شعر تراثي " لم يتابع حركة التطور الاجتماعي في الجزائر ... " و من ثم يقول، " صراحة إن التواصل بين الأجيال أدبيا لم يوجد إن لكل تجربته ..."¹.

و العجيب في الأمر أن " أحمد حمدي " نفسه، و قبل سنة واحدة من رأيه هذا كان يرى رأيا معاكسا تماما، حيث ذهب إلى " أن التجربة الأدبية الجزائرية ليست قصيرة، و إنما هي تمتد من أشعار الأمير.

و الواقع أن الادعاء بعدم الاستفادة من شعراء المرحلة السابقة، و الانفصال الكلي عن التراث و التمايز المطلق بين تجارب الرواد و تجارب الشباب إِدعاء لا يتسم بالموضوعية، و فيه تحيز ظاهر للشعر الحر، لأن هذه الآراء لا تتقيم و طبيعة التطور و التواصل بين الأجيال الأدبية المتعاقبة.

فلا يمكن أن تتصور جيلا أدبيا لاحقا منفصلا عن جيل أدبي سابق فما من جيل أدبي إلا و له جذور ممتدة في الماضي يستمد منها، و يتفرع عنها، و يضيق إليها، غير أنه من الإنصاف لهذه الحركة الشابة أن نلاحظ أنه من أهم الأسباب التي جعلت الشعراء الشباب الجزائريين يدعون للانفصال عن تجارب من سبقوهم من الشعراء الرواد، قلة النماذج الجيدة التي كان يفترض أن توجد لدى الشعراء السابقين مثل: سعد الله، و باوية، و خمار، و ألساحي، الصغير، و بوشوشي، و غيرهم من رواد القصيدة الحرة.

و في غياب النص النظري، و النموذج الشعري الأمثل من طرف النقاد و الشعراء الجزائريين الرواد، انصرف الشعراء الشباب من جيل الاستقلال إلى البحث عن البديل في الشعر العربي الوافد من المشرق العربي، أو في الشعر العالمي المترجم، و لا سيما ذلك الشعر المتميز بنزعتة الثورية التقدمية، و تم هذا التوجه إضافة إلى العوامل السابق ذكرها،

¹ أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ، ص 75.

فصل تمهيدي:

في إطار التحول الثقافي و السياسي و الاجتماعي الذي كانت تشهده الجزائر في هذه المرحلة.¹

و من ثم كان الاتصال المباشر المستمر بين هؤلاء الشباب، و شعر نزار قباني و السياب، و ألبياتي، و عبد الصبور، و أدونيس و سعدي يوسف، و محمود درويش، و سميح القاسم، و الاتصال غير المباشر عن طريق الترجمان بينهم و بين شعر ناظم حكما، و لوركا، و بابلو نيرودا، و ما ياكوفسكي ، و بودلير ، و رامبو ، و أرجوان ، و غيرهم من مشاهير الشعراء، و قد أصبح هذا الشعر عندهم بمثابة المثل الذي يجب أن يحتذي و النموذج الذي يجب أن ينتج على منواله، فراحوا يتأثرون خطواته، و يرددون أفكاره و صورته التي حد جعل هذا الشعر في أغلب نصوصه يتسم بال تقليد، و المحاكاة، و الاقتباس مما أفقده صفة التميز و التفرد و المدعاة.

لا نكاد نصل سنة 1975 و هي السنة التي انعقد فيها المؤتمر العاشر للأدباء العرب و مهرجان الشعر الثاني عشر بالجزائر، حتى تظهر فئة من الشعراء الشباب الذين يكتبون شعر التفعيلة، و يمكن القول عن هذه الفئة من الشباب أنهم أكثر تمثلا لتقنيات الشعر الحر و أوفى تعاملًا معه ممن سبقوهم من جيل الرواد، فإن أغلب الشباب الذين اتجهوا إلى هذا النوع من الشعر لم يكتبوا الشعر العمومي من قبل، و إنما ولدوا فنيا مع هذا الشعر الجديد قراءة و كتابة، و أخذت هذه الفئة تكتمل و تتكاثر شيئًا فشيئًا حتى كونوا شبه مدرسة اتخذت من مجلة " أمال " منيرا لها، و أصبح لها حواريوها و المدافعون عنها في كل أنحاء القطر و لا سيما في الجزائر العاصمة و قسنطينة و وهران و عنابة.

و الجدير بالملاحظة هو أن شعراء القصيدة الجديدة في هذه المرحلة أعلنوا القطعية التامة مع الشكل القديم، و أظهروا الحاسة و تعصبا للشكل الجديد، و اتسم موقف البعض منهم في كثير من الأحيان بالهجوم الواضح، على شعراء القصيدة العمودية بطريقة تقتقد

¹ عبد الركيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص86

النظرة الموضوعية، و تطرق بعضهم في الحكم القاسي على كل ماله علاقة بالتراث باعتباره لبوسا مهترئا لا يتماشى مع الحياة المعاصرة.¹

و بمناسبة انعقاد مؤتمر الأدباء العرب العاشر بالجزائر تحول موقف بعضهم من أنصار الشعر الحر إلى اتهام و ملاحقة لشعراء القصيدة العمودية و لا سيما الشباب منهم، و هاجموا كل شاعر قدم شعرا عموديا، و تحدث بعضهم عن " سقوط القصائد العمودية " هكذا بصرف النظر عن النماذج الجيدة، بينما رفعوا من قيمة الشعر الحر حتى تلك النماذج التي أخفقت أن تستشير اهتمام النقاد أو الجمهور و ذهب بعضهم إلى حد اتهام نماذج الشعر العمودي بأنها تمثل إساءة للأدب الجزائري، و أدى بأن " الشعر الجديد أصبح يسد الموقف في المهرجانات منذ الجلسة الأولى "².

و الواقع أن النظرية التي تصنف الشعر رداءة و جودة، جدة أو قدما جمودا أو تطورا، على أساس من تشكيله الموسيقى أو بنيته التعبيرية وجدهما تفتقد الحس الفني و الموضوعية النقدية معا، لأننا عندما نعود إلى الإنتاج الرائد عند شعراء القصيدة العمودية إلى جانب القصيدة الحرة، و لا أحل على ذلك من بعض الشعراء الكبار مثل: بدر شاكر السياب، و عبد الوهاب ألبياتي، و نزار قباني، و سليمان العيسى، و أحمد عبد المعطي حجازي و مضفر النواب.

¹ عبد ألكبيبي، دراسات في الشعر الجزائري الحديث ص90

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري ص89

الفصل الأول: الأمير عبد القادر (حياته، وثقافته).

1- ولادته ونشأته.

2- شخصيته.

3- منابع ثقافته.

الأمير عبد القادر ولادته ونشأته¹

مولده: ولد الأمير عبد القادر محي الدين بن مصطفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من رجب سنة ألف ومائتين وعشرين الموافق لليوم السادس والعشرين من سبتمبر (أيلول) سنة ألف وثمانمائة وسبع (23 رجب 1222هـ / 26 سبتمبر 1807م).

أما مولده فغربي مدينة "معسكر" بجزائر الغرب- كما سيقول عندما ينتسب بعد في قرية اختطها جده مصطفى أوائل القرن الثالث عشر الهجري الثاني عشر على الأرجح اشتهرت باسم "القيطنة".

شخصيته:

إن الذي يبحث عن عظمة الأمير الشخصية، ومقدرته الحربية والسياسة منقبا عن أصول شخصيته العظيمة ليبقى مشدوها حقا نظرا لما يحوط بها من مشاكل عديدة، ومراحل طويلة من الكفاح الإيجابي. وضعت الأمير بين مفترق الطرق قبل أن يتخذ كيان الثورة بابا له ينفذ منه إلى عوالم البطولة، وشوامخ جبال المجد.

وإذا ما استقرينا ينابيع هذه العظمة الشخصية التي يتصف بها الأمير وتتبعنا مناهلها الفوارة نجد أنها تنبثق من موارد عظيمة ومتعددة تعود كلها إلى معينين اثنين: أحدهما فطري والآخر وضعي اكتسابي.

أما الفطري الطبيعي فلكونه ابن عائلة شريفة المجد، عظمة الشأن كريمة المنشأ، طيبة الأرومة، واسعة الثرى، عالية القدر، عريضة الجاه، ماجدة النسب، يتصل عقدها بسلالة الرسول الأعظم محمد بن عبد الله؛ ولكونه من جهة أخرى ابن والد عظيم، هومن سادات رجالات ذلك العصر في ذلك المكان. علما وشرفا، وبطولة وشجاعة اجتمعت فيه خصال الأبطال، والتقت في شخصه مزايا الأخلاق، وكرم السجايا، وشرف التدين، والسطوة الروحية،

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثارها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، المطبعة الأهلية، بيروت، سنة 1324هـ.

إذ كان شيخ الطريقة الشاذلية منه يستوثق كل الناس في تلك الجهات مبادئها كما أسلفنا ذلك.

وأما الوضعي الاكتسابي فلكونه قاد حروبا طاحنة، وخاض معارك عنيفة طويلة سبعة عشر عاما ضد دولة كبرى ذات جيش منظم، وعتاد لا يقدر، وخبراء فنيين، وجنرالات قديرين كثيرا ما أصلاهم الأمير نار الحرب، وأذاقهم طعم الصاب، وجرعهم العلقم، وأسكرهم بماء الأفيون.

كان هذا وذاك مما ساعد على إنشاء شخصيته العبقريّة، وتكوين مقدرته الحربية، وخبرته العسكرية في وقت قصير جدا.

وإذا استمد من والده أصول العظمة، وأسس السياسة، ومعالم الدهاء عندما كان بجانبه يشاركه في المعارك الحربية الأولى بوهران، وافتك من العدو. الخبرة الحربية، والتقدم العسكري بفضل تلك الحروب الطاحنة التي خاضها معه، فقد أمكن له أن ينتزع من ذلك الفتى الرضيع الذي كان ينعم بين أحضان والديه في رحاب القيطنة- شخصية أخرى كان لها مقامها، ومكانتها في تاريخ الثورات التحريرية المباركة هي شخصية الأمير عبد القادر. ومن غير شك أن تكون هذه الشخصية التي بلغت إلى هذا الحد من العظمة، تتسم بأخلاق حميدة، ومزايا عظيمة، بها تحافظ على كيان الدولة، وشرف الأمة، وحقوق الشعب واستقلال البلاد في ظل العدل والحرية، والإخاء والمساواة، وهذا ما كان عليه الأمير.

وبهذا أدى الشهادة أحد المؤرخين حين قال:

" وكان الأمير محافظا على إقامة الحق، ناشر لواء العدل على عموم الرعايا يجري القصاص الشرعي والسياسي على أصحاب الجنايات بما يستحقونه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، يقبلون أحكامه ويتلقونها بانسراح صدر، وطيب نفس.¹

وثمة شيء آخر أهم من هذا يكون لتوفيره في الشخصية أثر عظيم في المجتمع. تستحق به الخلود في الحكم والتبجيل في صفحات التاريخ. هذا الشيء هو أن يكون حكم

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وأثارها في أدبه ص 56

الشخص وسيطرته على الشعب مبنيا على أسس القوة الروحية البعيدة عن الرهبة المادية، والنفوذ الآلي بحيث يصبح الحاكم أبا الجميع في كل الشؤون، وأمهات المشاكل، تهرع إليه الطبقات الشعبية كلها عن رضا وطواعية، لتفصل نوازلهما. فهل لهذا العدل حظ يذكر في شخصية الأمير؟ نعم ! هوكل ما عنده ولا أدل على هذا من قول أحد المؤرخين: " ومن العجب أن تمكن إمارته كان بقوتين: قوة رغبة، وقوة رهبة. إلا أن الأولى كانت هي المعمول عليها. ولذا كان الأكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد ".

والى جانب هذا فإن الصبر على الأهوال، والتجلد أمام الأخطار والوقوف أمام الصعاب بالثبات والإقدام، يكون هو الآخر من بين اللبانات الأولى التي تكون شخصية العظيم، وتعلي من شأنها إلى ذروة المجد. والأمير عبد القادر كان لهذه الصفة في نفسه أثر عظيم تجلى في أعماله الجليلة التي قام بها أثناء حروبه الطويلة، وثوراته المتعددة. وهذا ما قاله عنه أحد المؤرخين الإفرنج بعد أن ذكر ما جرى بينه وبين الخوارج العاصين حيث قال:

" إن همم الأمير لم تقتر في أثناء ذلك عن السعي بما فيه راحة البلاد، فإنه رتب سائر ما يلزم من الخلفاء عنه، والولاية ووطد الراحة العامة. والحق يقال أن الحصول على ذلك في مثل تلك الأوقات أمر عظيم جدا، وهو دليل كاف على عظم همته. فإنه قطع ما يوجب سقوط إمارته، وحول أحوال البلاد من العسر إلى اليسر، ومن الاضطراب إلى السكون في مدة عشرين شهرا من بيعته، وابتداء دولته لم يكن مظنونا عند من يعرف أحوال بلاد الجزائر، وضغائن أهلها، وعدم انتظار أمرهم ".

دهاؤه: ¹

كان للأمير إلى جانب خبرته العسكرية دهاء سياسي نادر المثال في ذلك الوقت، حتى أنه لم يكن عند خصومه الأعداء الذين يحاربونه آنذاك، ويفضل ذلك الدهاء السياسي أوقع

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثارها في أدبه، ص99

العدوفي مآزق في كم من مرة وعرضه للأخطار والمهالك، رغم تعدد مؤامراته، وتتابع إمداداته ووفرة عدته وعدده.

وفي كل مرة يحاول أعداؤه تغليطه بتوافه الأمور، وأخس العوامل، إلا وينقلب عليهم بركانا من الجحيم يصلهم نار خداعهم، ويذيقهم طعم غدرهم وخيانتهم. ويدلنا على هذا ما وقع في معاهدة الصلح التي وقعها معه (دي ميشيل)، تلك المعاهدة التي رام العدو من ورائها اغتنام الفرصة للانقضاض على البلاد في أقرب فرصة تسمح له بفضل ما لديه من التأويل اللفظية والمغالطات الاستعمارية.

وإليك في هذا الموضوع ما ذكره أحد المؤرخين إذ قال:

" بلغ الأمير عبد القادر في الفطنة والدهاء ما لم يبلغه غيره من أمراء العرب، وناهيك به من أمير جليل تلتف في الشروط التي قررها في عقد المعاهدة وأظهرها في أسلوب عجيب حتى أن الجنرال دي ميشيل لم يتوقف في قبولها، ولم يتلثم في الموافقة عليها. بل أجراها وأمضاها في الحال، ثم ظهر له منها ما تركه في حيرة من أمره، وعلم أن الأمير قد خدعه، والحرب خدعة، من ذلك أن جميع المعاملات التجارية تكون في مدينة (أرزيو) لا في سواها. وأنها تكون تحت نظره لا مدخل للفرنسيين فيها، وأن جميع ما يرد من الداخلية لا يباع إلا في أرزيو، ولا يشحن إلى بلاد أوروبا إلا منها. وأما وهران ومستغانم فلا يرد عليهما من الداخلية إلا ما تقضى به حاجة أهلها ".

وبفضل دهائه العظيم هذا تمكن من صد المعتدين والوقوف دون احتلالهم للبلاد قرابة السبعة عشر عاما، كانت كلها جهادا عسكريا، وكفاحا سياسيا، وإصلاحا اجتماعيا عظيما.

شجاعته:¹

أما شجاعة الأمير فالحديث عنها لا ينتهي. ولا أظن أن لها حدا أو مقياسا تقاس به، نظرا لفيضاتها عليه، وتدفعاتها وروحه منذ الصبا بلا حد ولا انقطاع. وكانت شجاعة روحية،

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثارها في أدبه، ص 120

وقوة معنوية متغلغلة في عروقه وأعصابه، أورثته حب التضحية الكاملة في سبيل الشعب والوطن، ومن أجل العزة والشرف دفاعا عن الحرية، وذودا عن الاستقلال. أسوة بأسلافه الأجداد، وأجداده الأبطال المغاوير.

ويعجبني في هذا المقام كلمته الماثورة التي ردها عندما هجم العدو على عاصمته الثانية بالزمامة في غيابه. وسلبها بعد أن قتل غالب أهلها، وأسر ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص، وكان من بين ما سلب مكتبة الأمير التي بها ما ينيف عن خمسمائة كتاب من أمهات الكتب والمجلدات. قال بعد أن لطف من روع أصحابه وهون من مصابهم، وهذا من اضطرابهم وأسفهم: " سبحان الله كل شيء كنا نحبه وتعلقت أفكارنا به كان يعوق حركاتنا ويقف في صدورنا عن الوصول إلى مطلوبنا. والآن صرنا أحرارا متجردين لا شغل لنا إلا مقارعة الأعداء، ومصارعتهم ". فهل بعد هذه الشجاعة من أخرى؟ وهل لهذه القوة المعنوية الجبارة من نظير؟ وبالتالي: هل بعد فقد الأهل والوالد، والمال والعشيرة، والصديق والنصير - هل بعد فقد كل هذا، وأكثر من هذا، من صبر يطاق؟ أو شجاعة تذكر؟ الواقع أنها قليلة جدا - إن لم نقل بانعدامها - في هذا الموقف الحرج. ذلك أن الشجاعة التي تجعل صاحبها بعد أن يعدم الأهل والخلان، ويفقد المال والولد في ميادين القتال ينقلب إلى بطل مغوار، وفارس مقدم، وأسد هصور - هذه الشجاعة قليلة هي إلا عند الأمير عبد القادر وأمثاله.¹

وهنا فقد نسمح لأنفسنا أن نسمع إلى المؤرخ (إسكندر بالمار) وهو يتحدث عن شجاعة الأمير بعد أن تعرض ليوم سكاك المشهور. قال إسكندر بالمار: " إن من العجب رجوع قوة الأمير عبد القادر إلى حالها الأولى بعد أن اعتراها الاضمحلال والتلاشي ثلاث مرات: الأولى بعد استيلاء الجنود الفرنسيين على عاصمته - معسكر - والثانية بعد غزوة تلمسان والثالثة: بعد واقعة سكاك، وكل حادثة من هذه الحوادث كانت صالحة لأن تكون سببا قويا لسقوط أعظم سلطان راسخ القدم، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل الأمة الفرنسية منه على طائل، فلهذا أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثاره في أدبه ص 56

العجيبة، وتصرفاته الغريبة لا يفارقان ذاته طرفة عين، ومن هنا تعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوته ".

وهكذا لو أردنا تعداد مواقف الأمير البطولية، وتتبع أعماله التاريخية، ومزاياه الإنسانية، لما استطعنا إحصاءها أبداً، وكفاه فخراً شهادة خصومه أنه ثالث الثلاثة العصاميين الذين أنجبهم القرن التاسع عشر.

قال المارشال سوليت الفرنسي سنة (1840) : " لا يوجد الآن أحد في العالم يستحق أن يلقب " بالأكبر " إلا ثلاثة أشخاص كلهم مسلمون وهم: (الأمير عبد القادر، ومحمد علي باشا، والشيخ شامل " .

منابع ثقافته:¹

هذه محاولة لدراسة جانب لم يدرس من قبل في حياة رجل متعدد الجوانب والدراسات والبحوث الرائدة والممهدة لتلك المحاولة يمكن إحصاؤها هنا ولكن طرق السابقين بالفضل إليها وآراءهم تستحق أكثر من الذكر والشكر. ولهذا أفرد فصل خاص لمناقشتها عنوانه: " موقف المؤرخين والنقاد من مؤلفاته وثقافته " ضمن الباب الثاني فهو يعالج - بجانب ذلك - ثقافته ومصادرها وعطاءه العلمي.

ويراد لهذه المحاولة التي قد تجمع أكثر من المعتاد بين دراسة الشخصية والتيار - لأنها صوفيان - أن تخطو - أولاً - نحو مرحلة جديدة في تأريخ نشيط - ولكن غير متكامل - للأمير عبد القادر الجزائري، لأنه مثال واضح لمثقف التراث الخالص، ولأنه ولي من الأعمال، وأتى من فنون البيان شعراً ونثراً ما هو مستعد له فعلاً وفي ظروف مواتية لمن يريد ويستطيع أن يبلغ درجة الإبداع فيما يعمل ويقول:

وقد يحسن وصف تراثه هذا بالإسلامي أو العربي بما فيه العصر الجاهلي لا سيما الدلالات النفسية والاجتماعية والأخلاقية لأدابه الموروثة لأسباب يأتي هو لإيرادها تأتياً

¹ محمد السيد محمد الوزير، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثارها في أدبه ص100

مبدعا في تاريخ لاعتصام بالتراث وخصوصا في أزمت الصراع الثقافي وقرينه العسكري أحيانا قبل أن تظهر في الميدانين أنفسهما مصطلحات جديدة مثل كلمة " أيديولوجية ".
ولكن عبد القادر - إذا أذن للأحكام أن تعجل بالظهور قبل المقدمات - لا يقبل التجزئة بين الكيان العضوي للمعرفة ولا يعترف - فيما يبدو - بحدود فاصلة بين عناصرها أو مصادرها وإنما في مظاهرها فقط فليست المعرفة مطلبا إنسانيا فحسب، ولكن إلهيا أيضا وما هي سببا للترقى وحده، وإنما للوجود كله، وفي إحدى دعاواه أن المعرفة هي المقصودة بالحب الإلهي في الإيجاد¹.

ومن أجل ذلك يراها بعدد المخلوقات في الكثرة لإتاحة الفرصة فيها المرة تلو المرة دون أن تنفد أو يستأثر بها فرد أو طائفة أو جيل أو أمة فليس لها - باختصار شديد - جنسية ولا وطن ولا نهاية وإذا أخذ ببقية مذهبه هذا فإن كلمة الثقافة الصوفية " سوف ترادف - على نحو ما - مصطلح التراث الإنساني أو عالمية الثقافة.

على أن المراد " بالثقافة " في عنوان البحث هو ما يستوعبه المرء من وحدة المعرفة، ويستقين صحته وصدق الشعور بحاجته هو وشركائه في الاستعداد والفرص المتاحة إلى الانتفاع العاجل به.

وما دام عبد القادر هو موضوع البحث فليس المراد بالثقافة مجرد الاستمتاع الفني، وإن كان هذا واردا - كما سيجيء - ولكن دون قصد إليه ولا تكلف فيه.

إن ينسب عبد القادر وثقافته هذه إلى الأدب بأكثر من سبب فالأدب حلقة منها ولا غنى عنها في دائرة المعرفة ولا يقف عبد القادر عند حد تعلم الأدب أو تعليمه حين استعمال أليق فنونه بأعماله، بل أن له موقفا مما يستحق منا التدوين والتخليد في فصل يعقده عن فضل الكتابة سيأتي الحديث عنه أخيرا عند الكلام على أثر ثقافته في نثره.

¹ محمد السيد الوزير: الأمير عبد القادر الجزائري (ثقافته وأثره في أدبه)، ص 66

كما يمكن أن تسهم دراسة شخصية الأمير عبد القادر وثقافته في الحوار الدائر حول مشاكل النظرية والتطبيق ، وما يسمى الأصالة والمعاصرة أو العراقة والحداثة وحول قضايا اجتماعية كقضية

" المرأة " وأثر " الاختيار " و " المحبة " في " البناء العمراني " وأخرى خاصة بالتربية وبالتعليم مثل العلاقة بين المعلم ومريد العلم، و " أثر القدوة الحسنة " و " طرق التدريس " و " إعداد المناهج " و " تأليف الكتب " و " تقديمها " و " التعريف بها " و " اختيار واختبار المتعلمين " و " وسائل التقويم والتقييم " و " مراعاة مقتضى الحال " و " الفروق الفردية " و " الموهبة والاستعداد " ... الخ.

وقد استطاع أحد النقاد أن يرى أصول المذاهب الأدبية حتى آخرها جده وأبعدها عمقا في " أنشودة الميلاد " ونحوها وأن كل شيء يمكن أن يكون موضوعا للدين يصلح أن يكون موضوعا للفن .

والدراسات حول طبيعة الفكر والثقافة الصوفية متعددة ومنها ما يكشف كل حين صلتها بالمدارس الثقافية الأخرى وهو ما تحول هذه الدراسة - ثالثا - أن تدلي فيه دلو .

ومن حسن الحظ - لا سيما حظ الأدب - أن رواد الباحثين تبينوا - فيما تبينوا من صلات - علاقة الفلسفة بالتصوف داخل حدود هذا التراث من خلال مقابلتين وقعتا في أقصى المشرق وأقصى المغرب منذ قرون. وقد انتهى الحوار هنا وهناك على أن ما " يعرفه " الفلاسفة هو ما " يراه " الصوفية

ولعل في هذا ونحوه سببا من أسباب التزام عبد القادر ومدرسته هذا المذهب الخاص في " الصورة الشعرية " حيث يختلف عن المذاهب التي نلتزمها، ونستمتع بها.

وقد تلبي هذه المحاولة - رابعا - حاجة الجسر الواصل بين الفكر الصوفي وبين الآداب والعلوم والفنون إلى المزيد من سعة الصدر وجمال الصبر، ومن التأني لفهم المصطلحات، ونقلها إلى لغات الفنون المتجاوزة المتكاملة بأكبر قدر ممكن من الأمانة و

تيسير امتصاصه

خلاصة:

القول أن عبد القادر ما زال مقاتلا عنيدا وكل ما حدث من أثر أنه استبدل سلاحا بسلاح، ولاقى في كل موقف بما يناسبه من السلوك. وانتقل من سطوة الأمانة بالجزائر إلى ظلمة السجن ووحشته وهو على حالة من طلب العلم وإيتائه بكل وسيلة، وأصبح العالم المتفرغ للعلم بعد إذ كان العالم المشتغل بالحكم. فكيف سيكون إذا أطلق سراحه وانتقل إلى " بلاد بعيدة تقربها الوحدة الدينية " حسب تكملة قوله في إحدى رسائل المعتقل المشار إليها من قبل.

الفصل الثاني: التجربة الشعرية عند الأمير عبد القادر

أولاً: الأمير الشاعر.

ثانياً التعريف بالديوان و أهم الأغراض الشعرية به.

ثالثاً: آثاره الشعرية .

رابعاً: وفاته.

التجربة الشعرية عند الأمير:

أولاً: الأمير الشاعر:

إن الحديث عن الأمير عبد القادر كشاعر ليس معناه:

الغوص في دراسة شعره الأدبي دراسة عميقة، و تحليله تحليلاً دقيقاً على مقتضى المقاييس الأدبية، و وفقاً لما تتطلبه الفنون الشعرية، من اعتناء بالألفاظ و الأوزان، كما أنه ليس المقصود مقارنة شعره بأشعار غيره من الفحول المتميزين و الأفاضل الفخريين، و العباقرة الغزليين و المادحين و غيرهم، لأن كل ذلك نقول سلفاً أن الأمير لربما كان دونه أو لم يطرق أعتابه من مسالكها على الأقل.

و هذا لا يعني أن الأمير قصر عن غيره من الشعراء في هذا المضمار. إذ أنه في الحقيقة طرق كل أبواب الشعر من مدح و عتاب. و فخر و توسل. و شوق و تغزل. و تهيئة و مطارحة، و ما إلى ذلك من الأغراض الشعرية. و زيادة على هذا أمتاز بشيء آخر هو تصويره الصادق لحالة وطنه في روائع أشعاره و قصائده.

فجاء شعره صورة طبق الأصل لما يقوله الأدباء و الكتاب اليوم في تعريف الشعر أنه "تصوير و تعبير".

و جاءت براعته الثانية في كونه استطاع أن ينظم هذا الشعر. و يتعاطى قريضه، و هو ما يزال يافعا دون الخامسة و العشرين من سنه. لم يسبق له أن تعلم موازين الشعر و مقاييسه، و لا سبق أن تلقى أصوله و مبادئه على أستاذ خبير في فنون الشعر و أصوله. و أعجب من هذا كله، جمعه بين كفاح السيف و القلم في وقت كان فيه أتون الحرب مشتعلا، و بركان الثورة متقددا، و نار الانقضاض و التمرد على الطغيان ملتهبة.

و فوق هذا العجب كله أن يكون أروع شعره مما قاله زمان الحرب و الثورة جاء على أشد ما يكون في القوة و المعنى، و متانة الأسلوب.

صور واقع البلاد وأعطى لنا صورة واضحة وقوية عن شخصيته وبسالته جيشه الفتى كما جسم مظاهر تلك الوقائع الحربية المهولة.

و قارئ شعر الأمير لا يجد نفسه يخترق بحارا تصنعها الأسطورة أو يجوب عوالم يشيدها الخيال و لكنه يلقي نفسه في مناخ العتاقة الأدبية و ضمن منطقتها و في أفياء شعريتها فقارئه يتعامل مع تقاليد القصيدة العربية التقليدية و يتفاعل مع قيمتها و يتعاطى ذائقة تستمد طعمها و نكهتها من الشعر العتيق.

و لا يعني هذا أن شعر الأمير خلا من المقومات الفنية التي تستخدمها قصيدة الشعر الحديث و المتمثلة في الرمز و الأسطورة و التسراد الإخباري و التركيب المشهدي و الموقف الحوارى، بل إن قصيدة الأمير تصطنع هي أيضا رمزيها بنوع من التفوق، و تقيم أسطورتها الخاصة لترى من خلالها الوجود و تحدد في ضوءها صلاتها بالإنسان و بالكائنات، بل وبالزمان والمكان.

حقا إن أغلب قصائده قد دارت مضامين تعلقت إما بشؤون الذات و القلب و الروح و إما استأثرت بها وقائع تجربة العمر في أطوارها المختلفة و التقلبات التي اتسمت بها حياة الأمير، الأمر الذي لا يعني بحال من الأحوال أن قارئ أشعار الأمير سيتوقف بالضرورة عند حدود خبرية حرفية ليوميته و تفاصيل تجاربه.

ذلك لأن مجال الشعر ليس قط تثبت الأخبار، و إلا أضحى تأريخا، إذ الشعر خطاب الرؤية الاستثنائية و تجسيد المشاعر و الآمال بألوانها القزحية، فهو من ثمة فن المتخيل، و إذا خلال الشعر من السحر و الدهشة، كان قاصرا عن وظيفته.

و من الصواب التأكيد أن قصائد الأمير تتماس مع الأسطورة و تتأصل لها الرمزية و إن كانت تلك حال قد لا يستبينها فيها إلا من يدرك الكيفية المناسبة التي تقرأ بها هذه القصائد.

لذلك قلنا أن أشعار الأمير هي تشكيل مفرد و منظومة متواشجة لأنها ارتبطت جميعا بذات مفردة و بتجربة و معمار شعوري فريد و إن ترافدت طبقاته و اختلفت ملابساتها، صدى للأطوار المختلفة التي عرفتها حياة الأمير.

لقد أفلح في تهيه مواقف من الترقب و الانتظار الفني من خلال إجادته لعملية التحويم العاطفي و التهويم الوجداني فاستطاع أن يصنع حيرة، و أن يصوغ على ذلك النحو البسيط رمزا لا يمكن إلا أن يقف حياله كل قارئ لأشعاره دهشا، إذ لن يسعه و في أحوال ليست بالقليلة أن يجزم بالوجه التي ينبغي أن تصرف إليها مرامي القول الشعري، إلى هذا الصدد أو إلى ذلك؟

إن قراءة أشعار الأمير تستوجب الاستناد على حظ من التأويل اليقظ، لا سيما أشعاره العاطفية و الوجدانية، فقد استطاع الأمير أن يتوقف بها- أو على الأقل ببعض مستوياتها - عند نقطة شارفت تقاطعات متعددة، إذ جاء الخطاب يحتمل المنحى الغزلي الموضوعي (التغزل بالمرأة)، و جاء في ذات الوقت يحتمل دلائل التواجد الروحي المتسامي (بالذات

الإلهية)، و جاء ثالثة يحتمل أمارات معنوية تحيل على هم جسيم سكن قلب الشاعر و استوطن روحه (القضية).

ديوان الشاعر الأمير عبد القادر (1807 / 1883 م):

و مهما يكن افتقادنا لشعره الذي قاله زمان الصبا و الفتوة قبل الإمارة و بعدها، إذ يقال أنه ضاع و أفتقد من أوراقه عندما استولى جيش الاحتلال الفرنسي على (مكتبته) الكبرى الشهيرة في عاصمته الثانية (الزمالة) التي أحتلها آنذاك، ويقال حسب قول الجنرال "أزان" أن بها مئات الآلاف من المجلات العلمية الثمينة جعلوها أثرا عينيا بعد عين¹. فإن القسم الموجود بين أيدينا، و الذي جمعه ولده الأمير أحمد محمد في ديوان صغير تحت عنوان: " نزهة خاطر في قريض الأمير عبد القادر ". هذا القسم كاف لأن يعطي لنا صورة واضحة عن قيمة الأمير الأدبية، و قوته الشعرية، و مقدرته الفنية، في الفخر و الاعتداد، و التهيئة و العتاب، و الشوق، و الغزل، و التصوف، و المدح و التغزل و غيرها.

على أن هناك مزية أخرى تفرد بها الأمير في عالم الشعر. هي أنه كان أول شاعر في المغرب العربي عامة، و في الجزائر بالخصوص. تعاطي شعر الحماسة. و طرق باب القريض الملحمي ليفتحه على مصراعيه لمن يأتي بعده من فحول الشعراء، و رواد الحماسة و الملاحم.

و لئن كان شعر الأمير في مجموعة لا يتسم بالقوة اللفظية، و الجزالة البلاغية على غرار طريقة أمراء الشعر من مثل الملك الضليل، و البحتري و أبي تمام، و بشار، و المتنبى، و أبي العلاء، لكنه على كل حال كثيرا ما يتلاقى مع أبي الطيب المتنبى في الفخر و الحماسة، و مع أبي تمام في المدح و الاستعطاف، و مع البحتري و ابن زيدون في الوصف و التغزل، و حكيم المعرفة في الفلسفة و الحكمة.

¹ ص30- الجزائر معركة التحرير

و لئن كان أسلوبه الشعري في النسيج و السبك مفككا مهلهلا بعض الأحيان فإنك تجده في الغالب و الأكثر من المتانة بمكان، قويا جزلا، فصيحاً متناسقا، محكم العبارات متماسك الجوانب.

و لئن كانت أغراضه التي يرمي إليها من وراء شعره مسفة في بعض الأحيان الأخرى فإنها في الأحيان الأخرى عميقة و قوية، بعيدة عن السطحية و التقليد، أصيلة في شرف المقصد، و نبل المرمى، صادقة في معناها، تتم عن حيوية الضمير، و شدة الحساسية. و حسبه في هذا المقام أن يكون، كما قلنا، أول من قام بتحمل هذه الرسالة الشعرية الأدبية في المغرب الأوسط (الجزائر) في الوقت الذي انطفت فيه شعلة الشعر، و تجمدت جميع القرائح و تكمشت في داخلها كل المواهب، بحيث يكاد يقفز الوطن الجزائري من مثل هؤلاء الرواد الذين يعهد إليهم بحمل لواء رسالة الشعر الحماسي، و راية القريض الحربي، و المشعل الأدبي.

و إذا ما علمنا بأن الشاعر العربي في العصر الجاهلي و ما بعده إنما هو بمرتبة المحامي يدافع عن حقوق قومه، و الصحافي ينشر أخبارهم في البلاد، و الترجمان يشرح لها مبادئ السير قدما إلى الأمام في شيء من الحزم و النشاط، و اليقظة و الحذر.

و إذا ما علمنا بأن الشاعر العربي في مختلف العصور هو الذي يوكل إليه إثارة الحمية في طبقات الشعب، و إيقاظ الإحساس في الأوساط البيئية حتى تتكثل، و تتحد و تتعاون على دفع الخطر، و درء الأهوال، و الوقوف صفا واحدا دون تسرب قوى الشر و الطغيان و الأخطار و المفاسد إذا ما علمنا كل هذا سهل علينا أن ندرك الغرض الذي دعا الأمير إلى تعاظمي مثل هذا النوع من الشعر الحماسي في حروبه التحريرية و أن نعرف سلفا بأنه جزء لا يتجزأ من كفاحه الشريف، و نضاله المستميت، و جهاده المقدس، بالحديد و النار. ذلك أنه أدرك بثاقب بصيرته، و عقله الحكيم، بأن الشعب ينقاد إلى حكيم القول، و أصدق العبارة، و أنجح الكلام، أكثر مما ينقاد إلى العصا و السيف.

و لذلك نراه يحرص كل الحرص في أثناء حروبه على ألا يترك الفرصة تفوت عندما تسنح له، فيتوجه إلى شعبه الوفي بقصد بليغ من روائع الشعر العربي في الحماسة بالنسبة لذلك العصر، و في تلك البيئة و في مثل ذلك الوطن، و قد افتتح عهد القريض الحماسي بمقصورته الكبرى التي نظمها عقب معركة خنق النطاح الأولى بأرباض وهران و قال فيها:

و إنا بنو الحرب العوان بها لنا سرور إذا قامت و شاننا بها عوى

أهم الأغراض الشعرية بالديوان:

خرج الأمير بالشعر و أغراضه عن نطاقها العرفي و اقتحم بها حدود المقاومة، فالمدح لم يعد أنانية و تضخيما مبالغا فيه للذات، و الفخر لم يعد مكاثرة و عنتريات انفعالية لا طائلة و رائها، و الفروسية لم تعد شموخا و تطاولا كاريكاتوريا على ابن العم أو ابن العشيرة، و إنما أضحت تلك الأغراض جميعا حدثا قتاليا و فعلا بنائيا تواجه به الأمة شروطا قومية جديدة و مستلزمات حضارية طارئة و حاسمة.

لقد حلحل الأمير أرضية الشعر من صعيدها التقليدي العتيد، وانزاح بالخطاب نحو وجهة واقعية، و سعى إلى تطويع عود البيان العربي ليعبر بكفاءة عن أحوال الصدام الحضاري، و نوى ملامح قصيد تعالقت فيه غنائية الوجدان مع غرضية المضمون الحيوي، إذ ارتقت القصيدة على يديه و خطت أولى خطواتها على درب الجد والمصلحة الجماعية.

و كان له مجال الخوض في التأمل الوجودي و الفلسفي، الأمر الذي أعاد للشعر بعضا من خصوصية الجمالية التي حرص الأمير على أن يثبت أسسها على قواعد التراث من جهة و بتعميق الحس الإيقاعي من جهة أخرى، فعديدة هي القصائد التي ترددت فيها تناغم القصة العامرية و القلال الحشمي، و إن دراسة أشعار الأمير في هذا الجانب لمفيدة.

فالقيم في القصيدة تحورت، و المعاني أخذت منحى نضاليا لم يكن لها من قبل على الإطلاق، و أفق انتظار المتلقي انفتحت أمامه أبواب و إشكالات منازلة تراهن على البقاء و الوجود الحضاري المستهدف، كما لاحت في وجهه آمال لا قبل للأمة بها.

و أما في شعره الروحي فتتجلى نزعة التأمل و تتلامس نتائجها مع نتائج التجربة الجهادية ذاتها، من حيث تجانسهما معا في طبيعة المقاصد السامية و المطامح الرائعة المستهدفة في كلي الصعيدين.

و إنه لطبيعي أن تتعمق أفكار الأمير في خضم القتال و تقلبات المصير بيقين جديد هو إيمانه بدور الإنسان و مسؤوليته في تغيير أوضاعه، مصداقا لقوله تعالى أن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما سار بالشعر في منعطف مستجد، بتوظيفه القصيد في المواجهة الحضارية.

و إن نسا مثل يا " عاذرا .. " هو واجهة مهمة على ذلك الطريق الجديد الذي شقه الأمير بالشعر، حيث أضحت للكلمة هموم أخرى تتجاوز حدود ما اعتاد الناس أن يلقوه لها من أشجان شخصية أو مقتضيات عشائرية لا تمس واقع الأمة و لا تعني مستقبل وجودها فتिला.

فلكونه يعلم أن عروس الملك لم تخطبه إلا لأنه أهل لها يقودها إلى الأمام غير مبال بأي كان من العوارض.

و كيف لا ! و هو القائل:¹

و إنا بنو الحرب العوان بها لنا	سرور إذا قامت و شأننا بها عوى
لذلك عروس الملك كانت خطيبي	كفجأة موسى بالنبوة في طوى
و قد علمتني خير كفاء لوصلها	و كم رد عنها خاطب بالهوى هوى
و قد سرت فيهم سيرة عمرية	و أسقيت ظاميتها الهداية فارتوى
و إنني لأرجو أن أكون أنا الذي	بين الدياجي بالسنا بعد ما لوى

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، تح، الدكتور العربي دجو، ط3، 2007 ص25

والحقيقة أن إعتداد الأمير بنفسه كان كبيرا جدا حتى ليخال المرء الذي لا يعرف عن سيرته شيئا أنه من قبل المبالغة؛ إلا أنه صادق في الواقع فيما يدعي، و محق فيما يقول، و معاركه الحربية التحريرية طيلة سبعة عشر عاما خير شاهد على ذلك.

و أعتقد أن هذا الاعتداد الشديد الذي يظهره في حياته و الذي امتاز به عن غيره، هو الذي أعانه على مواجهة تلك الحروب الطاحنة، و الأهوال و الأخطار مدة كفاحه الذي لم لتخله أدنى راحة أو فتور.

و الاعتداد بالنفس من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الأمام بشرط أن يصاحب ذلك نوع من المحكمة التي تكيف الإنسان لتجعل منه عظيما بحق يستحق لقب الزعامة بنوعها: الحسي، و المعنوي.

و من غير شك أن كل هذا توفر لدى الأمير، و اكتمل. و لنسمع إليه كيف يقول مفتخرا:¹

لنا في كل مكرمة مجال و من فوق السحاب لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول و خضنا أبحرا و لها زجال

إذا عنها تواني الغير عجزا فنحن الراحلون لها عجال

سوانا ليس بالمقصود لما ينادي المستغيث: ألا تعالوا

و لفظ الناس ليس له مسمى سوانا، و المنى منا ينال

لنا الفخر العميم بكل عصر و مصر، هل بهذا ما يقال؟

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم و أقوالي تصدها الفعال

و هكذا لم يقنع بكل هذا فنادى في الناس جميعا ليسألوا عنه غيره، و خصوصا

الفرنسيين كي يتحققوا فيما قاله، و يعرفوا أنه الحقيقة بعينها. فقال:²

سلوا عنا الفرنسيين يخبروكم و يصدق إذ حكموا منهم مقال

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص 28

² نفسه 29

فكن لي فيهم من يوم حرب به افتخر الزمان و لا يزال
و لم يفتأ يفاخر بنفسه، و يعتد بشجاعته و إقدامه حتى عندما يخاطب زوجه الغضوب
و هو يردد:¹

أمير إذا ما كان جيشي مقبلا	و موقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخليل إنني لأول	و إن جال أصحابي فإني لها تالي
أدافع عنهم ما يخافون من ردى	فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
و أورد آيات الطعان صحيحة	وأصدرها بالرمي تمثال غربال
و من عادة السادات بالجيش تحتمي	وبي يحتمي جيشي و تحرس أبطالي
و بي تتقي يوم الطعان فوارس	تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا تشككي خيلي الجراح تحمما	أقول لها صبرا كصبري وإجمالي
أبذل يوم الروع نفسا كريمة	على أنها في السلم أغلى من الغالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه	على ضامر الجنين معتدل عالي
سلي البيد عني و المفاوز و الربى	و سهلا و حزنا كم طويت بترحالي
و عني سلي جنس الفرنسيين تعليمي	بأن (مناياهم) بسيفي و عسالي
فلا تهزئي بي و اعلمي أنني الذي	"أهاب و لو أصبحت تحت الثرى بالي"

أجل ! إلى هذا الحد يعتد الأمير بنفسه، و إلى هذه الدرجة يعلو بنفسه حتى يجعل منها، مجنا يحتمي به فوارسه، و بطولة كبيرة هذه التي أصبح صاحبها يهاب و هو تحت الثرى، و إلى جانب هذا فهي أمر واقع عندما يحدثنا التاريخ بأن الأمير أصيب فرسه بثمانى رصاصات، و سقط بالتاسعة و هو في الخط الأمامي في (واقعة خنق النطاح الأول)، و إن ثيابه كلها تقطعت و خربها الرصاص، و أن أربعة أفراس كاملة تصاب بالموت في واقعة رأس العيون فيستبدل غيرها ليواصل العمل في المعركة، و هكذا في القطع و تافنا و تلمسان و الغزوات و غيرها.

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص30

وإذا كان اعتداده بنفسه قد بلغ هذه الدرجة، فإن اعتداده بأصحابه، و افتخاره بهم ليس بأقل من هذا، و هو دليل آخر على صدق الأمير فيما يقول، حيث لم يحتكر ذلك لنفسه فحسب.

وهو ضمان من جهة أخرى لقيمة ذكراه، و سمو تفكيره، و علو مقاصده الشريفة، لأنه بهذا الاعتراف الجميل منه لأولئك الأبطال المغاور، وضعهم في مأمن من التزعزع.

يقول الأمير في أصحابه هؤلاء:¹

إن غيرهم بالمال شح و ما سخا	جادوا ببذل النفس دون تعلل
الباذلون نفوسهم و نفسيهم	في حب مالكننا العظيم الأجلل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم	يوم الكريهة، نعم فعل الكمل
الصادقون الصابرون لدى الوغى	الحاملون لكل ما لم يحمل
إن نال غيرهم اللذائد مسرفا	هم يبتغون قراع كتب الجحفل

و إذا كان الأمير قد كان ذلك منه " وصفا " لا عملا، فعن جيش الاحتلال قد كان ذلك منه " عمليا "، حيث أنه في إحدى الوقائع حشر الأهالي العزل في المغاور و سد مدخلها بالنيران حتى ماتوا جميعا مختنقين بالدخان، و أكلتهم النيران طعمة مستساغة، كما وقع ذلك عام 1845 م لقبيلة من (أولاد سيدي يحي) بالصحراء، حيث حاصر أهلها (كافيناك) في غار يدعى: " دار العقبة البيضاء ". و كانوا (500) و قيل (1000) شخصا، فأحرقهم جميعا بنفس الطريقة الأنفة الذكر.

نعم ! يعيب ذاك عن الأمير من لم يعلم هذا و أكثر من هذا، أما من اطلع فلا يلومه في قوله يصيف أصحابه:

و أذ شيء عندهم لحم العدا

و دماؤهم كزال عذب المنهل

النازلون بكل ضنك ضيق

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، 30

رغما على الأعداء بغير تهول

لا يعرف الشكوى صغير منهم

أبدا و لا البلوى إذا ما يصطلي

و لا مرء في أن مثل هؤلاء الأصحاب لا بد أن يكونوا على جانب عظيم من الشجاعة
و الإقدام لا يستهان بهما، و لا شك أيضا أن يكونوا قد أدوا خدمات جليلة للوطن، إلى
جانب كونهم سواعد الأمير الميامين، و فرنسا المغاوير.

أجل ! بهذا يحدثنا عنهم الأمير عبد القادر قائلاً:¹

ما منهم إلا شجاع قارع

أو بارع في كل شيء مجمل

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا

من سابق لفضائل و تفضيل

كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا

أقوى أعاديهم بكثرة و تمول

كم صابروا كم كابروا كم غادروا

أقوى أعاديهم كعصف مؤكل

كم جاهدوا كم طاردوا و تجلدوا

للنائبات بصارم و بموقل

كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا

من جيش كفر شبه موج يعتلي

كم ثبتوا كم بتتوا كم شتتوا

شمل الكوافر باقتحام الجحفل

كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص 35

بتسارع للموت لا يتمهل

كم شردوا كم بددوا و توعدوا

تشتيت كل كتيبة بالصقيل

يوم الوغى يوم المسرة عندهم

عند الصباح له مشوا بتهلل

فدماؤهم مسفوحة و سيوفهم

ممسوحة بثبات كل مجندل

لا يحزنون لهالك بل عندهم

موت الشهادة غبطة المتوسل

ما الموت بالببيض الرقاق نقيصة

و الموت عندهم بموت الهمل

و هنا لا بأس أن نقف لنذكر أن الأمير في مواقفه هذه جاد غير هازل، صادق غير مجازف. و هذا على عكس غيره من الشعراء بصفة عامة الذين يطرون في المديح إلى حد الكذب، و يغرقون في الفخر إلى درجة التدجيل.

و ميزة الصدق في الأقوال قليلة عند الإنسان في مثل هذه المواطن، و مع ذلك فإن الأمير كان فيها الصادق الأمين، و المخلص الوفي. و كيف لا ! و هو قائل:

رفعنا ثوبنا عن كل لؤم

و أقوالي تصدقها الفعال

و مرة أخرى نلمس صدقه في أقواله، و ذلك عندما نصب حكما في فصل قضية تفضيل البدو على الحضر، إذ يقول:

يا عاذرا إلا مرئى قد هام في الخضر

و عاذلا لمحب البدو و القفر

لا تدمن بيوتا خف محلها

و تمدحن بيوت الطين و الحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني

لكن جهلت و كم في الجهل من ضرر

حقا إن الجهل عظيم الضرر، و إلا فكيف لا تكون البادية خيرا من الحاضرة ما دام سكانها في خير مستمر، و عافية. هم أصحاب الكلمة في أوطانهم بعيدين عن كل خطر و بلاء بما توفر لديهم من الهواء الطلق، و الكرم الحاتمي، و الخلق الرفيع، مع ما يصاحب هذا من القوة الجسيمة التي تجعلهم دائما على قدم الاستعداد لدفع كل الأخطار، و صد كل الهجومات، بسيوفهم البتارة، و حميتهم المتقدة، و سفائنهم البرية.

يقول الأمير:¹

سفائن البر بل أنجى لراكبها

سفائن البحر كم فيها من الخطر

لنا المهاري و ما للريح سرعتها

بها و بالخيل نلا كل مفتخر

فخيلنا دائما للحرب مسرجة

من استغاث بنا بشره بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا

و أي عيش لمن قد بات في خفر؟

لا نحمل الضيم ممن جار نتركه

و أرضه، و جميع الز في السفر

و إن ساء علينا الجار عشرته

نبين عنه بلا ضرر و لا ضرر

نبيت نار القرى تبدو لطارقنا

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص33

فيها المداوة من جوع و من خصر

عدونا ما له ملجأ و لا وزر

و عندنا عاديات السبق و الظفر

و مهما يكن عدم مشاطرتنا للأمير في جعله كل العز و الشرف في السفر، لأن صاحبه يفقد الحياة الرتيبة التي تتطلبها الحاضرة، و الواقع البشري أيضا، و لأن الاستقرار الإنساني يجب أن تتوفر له عوامل الإقامة حتى يتجه الإنسان إلى أداء رسالته في أي وجهة كانت مهما يكن ذلك، فإننا نوافقه كل الموافقة و نشاطره في قوله:

ما في البداوة من عيب تدم به

إلا المروءة و الإحسان بالبدر

و صحة الجسم فيها غير خافية

و العيب و الداء مقسوم على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى

فنحن أطول خلق الله في العمر

بقية الأغراض الأخرى:

و إذا ما تجاوزنا أشعاره الحربية و الفخرية إلى شعره الغزلي نجد أنه متمسك بخلة الصدق كما نعثر على ذلك في شعره الصوفي.

يقول متغزلا بزوجه خديجة بنت عمه علي ابن أبي طالب:

أقاسي الحب من قاسي الفؤاد

و أرعاه و لا يرعى ودادي

أريد حياتها و تريد قتلي

بهجر، أو بصد، أو بعاد

و أبكيها، فتضحك ملء فيها

و أسهر، و هي في طيب الرقاد

هكذا يستسلم، و هو القائد الحربي، و البطل العسكري، و الزعيم السياسي، إلى هذا الإباء و الشمم اللذين تظهرهما معشوقته وتصر على تنفيذها و تطبيقها عليه.

فهل حرك ساكننا، أبدا ! لماذا؟ الجواب عند الأمير نفسه الذي تملكه العجب بدوره إزاء هذا الواقع و الظاهرة العجيبة. يقول:¹

و من عجب تخاف الأسد بطشي

و يمنعي غزال عن مرادي

و ماذا غير أن له جمالا

تملك مهجتي ملك الواد

و سلطان الجمال له اعتزاز

على ذي الخيل و الرجل الجواد

و هذا العقل مغتفر و زين

إذا يوما أبيت على ميعاد

و لئن كان الناس يتهافتون على عالم المادة متسابقين إلى كنوز الذهب و الفضة بكل الوسائل الشرعية و غيرها، في شيء من الحزم و الجد، فإن الأمير يكفيه ذخرا و زادا الحضوة ببنت عمه:

إذا ما الناس ترغب فتني كنوز

فبنت العم مكتتزي و زادي

و بالوقوف قليلا عند هذا الحد نسبتن من خلال شعر الأمير أن أهالي البيئة في عصره، و جمهور الشعب يحبون الجمال، و يعشقون مظاهره. و هو دليل على صفاء الذهن، و عصب الذاكرة و نباهة العقل، و وفرة الخيال، و دقة الفطنة.

و هذا يجر إلى اعتبار رقي البيئة، و قبولها للتطور في ثورة وجود عوامل الرقي و وسائل التحضر.

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، 39

و معنى هذا أيضا أن المجتمع الجزائري عريق في الحضارة منذ القدم ذلك الإنسان، و ليونة الطباع منشؤها من تهذيب الأفكار، و تهذيب الأفكار وليد رقي العقل الباطني. و رقي العقل الباطني يحفز صاحبه إلى البحث و التقيب عن أسرار الكون، و مقومات الطبيعة. و لصحة ما نقول في نضوج الشعب الجزائري و تحفزه إلى الأمام عندما يمنح مسيرين حكما نعود إلى فترة حكم الأمير عبد القادر التي مرت بنا فيما مضى من الكتاب، كي نتأكد إلى أين ارتقى في ظرف لم يتجاوز السبعة عشر عاما، مر معظمها في الكفاح الحربي التحريري.

و مع هذا فقد حقق الأمير عبد القادر للشعب الجزائري ما لم يتوفر لفرنسا في ذلك الوقت، و لا حتى لبقية الأمم الأخرى غيرها.

و ما حققه الأمير عبد القادر للشعب الجزائري غير ممكن أن يحققه لو لا أن هذا الشعب كان قابلا للتطور، مستعدا للعمل المتواصل في سبيل حياة فاضلة، و مستقبل زاهر، و أصبح يدرك معنى الحياة في ظل الحرية الكاملة، و الاستقلال التام، تحت راية الحكومة الوطنية الشعبية. و لعل تجربة البناء الرائدة التي حققها بعد تحقيق الاستقلال في أقل من عقدين، خير دليل على مدى تحفزه للعمل.

و نعود إلى الجمال لنذكر أن دفاع الأمير لا يقدر، حتى أنه شنع كثيرا بألئك الذين يريدون تشويه الخدود بالموسى بواسطة الوشم فقال !¹

أقول نقوم لا تقيد نصيحتي

لديهم و لو أبديت كل الأدلة

ألا فاتركوا ورد الخدود و شأنه

فتخديد كم في الخد أقبح قعلة

أيعمد ذو لب لخد مورد

و يقسمه عمدا إلى شر قسمة

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص40

و مادح شرط الخد بالسود صادق

و أما نجد البيض فالقبح عمدتي

ما يختشي من أن أكون مخددا

و يدخل فيمن حاز أفضح قولة

فبالحظ لا الموسى تخذش وجنة

فيا ويلتا منه و يا طول حسرتي

و إني لأهوى كل خد مورد

زهاقظ لم يمسه موسى بخدشة

أما شعره الصوفي فتراه فيه ينتقل من عالم البشرية المادية إلى عالم الإنسانية الروحية، متعجبا من أولئك الذين يغذون في السير طلبا للكمال و راء المادة.

و كل ما في الأمر أن مكة المكرمة بها كعبتان عنده: كعبة المادة ذات الجدران و الأركان و صاحبة الفروض و المناسك، و كعبة الجناب العالي الذي سما مستغنيا عن الركن و الحجر. يقول الأمير:

فمكة ذي خير البلاد فديتها

فما طاولتها الشمس يوما و لا النسر

بها كعبتان كعبة طاف حولها

حجيج الملابل ذاك عندهم الظفر

و كعبة حجاج الجناب الذي سما

و جل فلا ركن لديه و لا حجر

و شتان ما بين الحجيجن عندنا

فهذا له ملك و هذا له حجر

عجبت لباغي السير للجانب الذي

تقد سما لا يحد له السير

و يلقي مناخ الجود و الفضل واسعا

و يلقي فراتا طاب نهلا فما الفطر

منتخبات من شعره:¹

قال الأمير مفتخرا في ابتداء ملكه بعد واقعتي خنق النطاح اللتين حقق فيهما الأمير

انتصارا باهرا:

توسد بمهد الأمن قد مرت النوى و زال لغوب السير من مشهد الثوى
و عر جيادا جاد بالنفس كرها و قد أشرفت مما عراها على الثوى
و كم قد جرت طلقا بنا في غياهب و خاضت بحار الآل من شدة الجوى
و كم من مغازات يضل بها القطا قطعت بها و الذئب من هولها عوى
لذا قد غدت مثل القسى ضوامرا و تلك سهام للعدا وقعها شوى
إلى أن بدت نيران أعلامنا لها و ما ضوء نيران الكرام له انزوا
و لا سيما أهل السيادة مثلنا بنو الشرف المحض المصان عن الهوى
فقالن أيا ابن الراشدي لك الهنا كفى فاترك التسيار و أحمد وجى النوى
ألا يا ابن خلاد تطاولت للعلا و باينت مأواك الكريم و ما حوى
فمن أجل ذا قد شد في رباعنا لها عقلا و نادينا لك العز قد ثتوى
و حل بكهف لا يرام جنابه فمن حل فيه مثل من حل في طوى
فنحن أكاليل الهداية و العلا و من نشر علياهم ذي المجد قد طوى
و نحن لنا دين و دنيا تجمتعا و لا فخر إلا ما لنا يرفع اللتوا
مناقب مختارية قادرية تسامت و عباسية مجدها احتوى
فإن شئت علما تلقني خير عالم وفي الروع أخباري غدت توهن القوى
لنا سفن بحر الحديث جرت به وخاضت فطاب الورد ممن به ارتوى
و إن رمت فقه الأصبحي فعج على مجالسنا تشهد لداء العنا دوا

¹ الأمير عبد القادر، ديوانه، ص ص 48. 49. 50.

و إن شئتحو فانحنا تلق ماله غدا يذعن البصري زهدا بما روى
 و نحن سقينا البيض في كل معرك دماء العداء و السممر اسعرت الجوى
 ألم تر في خنق النطاح نطاحنا غداة التقينا كم شجاع لهتم لوى
 و كم هامة ذاك النهار قددتها بحد حسامي و القناطعة شوى
 و أشقر تحتي كلمته رماحهم ثمان و لم يشك الجوى بل و ما النوى
 و عندما اخلي له الفرنسيون مدينة (تلمسان) يعد عقد الصلح مع بيجو المعروف
 بمعاهدة (تافنة) قال:

إلى الصون مدت تلمسان يداها و لبت فهذا حسن صوت نداها
 و قد رفعت عنها الأزرار فلج به و بلل فؤاد من زلال نداها
 و ذا روض خديها تفتق نوره فلا ترض من زاهي الرياض عداها
 و يا طالما صانت نقاب جمالها عداة و هم بين الأنام عداها
 و كم رائم رام الجمال الذي ترى فأراد منها لحظها و مداها
 و كم خاطب لم يدع كفاء لها و لم يشتم طرقا من وشي ذيل رداها
 و آخر لم يعقد عليها بعصمة و ما مسها مسا أبان رضاها
 و قال في الفخر أيضا مخاطبا زوجه:

تسائلني أم البنين و أنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
 ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجهل هموم القوم في يوم تجوالي
 و أغشى مضيق الموت لا متهيبا و أحمى نساء الحي في يوم تهوال
 يثقن النسابي حيثما كنت حظرا و لا تثقن في زوجها ذات خخال
 أمير إذا ما كن جيشي مقبلا و موقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
 إذا لقيت الخيل إني لأول و إن جال أصحابي فإني لها تالي
 أدافع عنهم ما يخافون من ردي فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
 و أورد آيات الطعان صحيحة و أصدرها بالرمي تمثال غربالي

و من عادة السادات بالجيش تحتمي و بي يحتمي جيشي و تحرس أبطالتي
و بي تتقي يوم الكعان فوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
و إذ تشتكي خيلي الجراح تحمحا أقول لها صبيرا كصبري و إجمالي
و أبذل يوم الروع نفسا كريمة على أنها في السلم أغلى من الغالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه على ضامر الجنسين معتدل عال
و عني سلي جنس الفرنسيين تعلمي بأن مناياهم بسيفي و عسالي
فما همتي إلا مقارعة العدا و هزمتي لأبطال شداد بأبطالي
فلا تهزئي بي و اعلمي أنني الذي أهاب و لو أصبحت تحت الثرى بالي !
و قال متشوقا إلى خليفته بجمال جرجرة من بلاد القبائل:
يا أيها الريح الجنوب تحملي مني تحية مغرم وتجملي
وأقري السلام أهيل ودي وانثري من طيب ماحملت ريح قرنفل
حلي خيام بني الكرام و خبري أني أبيت بحرقة و تبلبل
جفني لقد ألف السهاد لبينكم
كم ليلة قد يتها متحسرا فلذا غدا طيب المنام بمعزل
سهران ذو حزن تطاول ليله كمبيت ارمد في شقا و تململ
ماذا يضر احبتي لو ارسلوا فمتى أرى ليلي بوصل ينجلي؟
كل الذي ألقاه في جنب الهوى طيف المنام يزورني بتمثل؟
أدي الأمانة يا جنوب، و غايتي سهل سوى بين الحبيب الأفضل
في جمع شملي يا نسيم الشمال

أهدي إلى من بالرياض حديثهم
أذكى و أحلى من عبير قرنفل
تهدي إلى طرائفنا و طرائفنا
و لطائفنا بتعطر و تعسل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي
مه ذا محال ويك عنه تحول
كيف التصبر عنهم و هم هم
أرباب عهدي بالعقود الكمل
أيحل ريب الدهر ما عقدوا و كم
حلت عقودي بالمنى المتخيل
تقديم نفسي و تقدي أرضهم
أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناسا ليس يدعى غيرهم
حاشا العصابة و الطراز الأول
يكفيهم شرفا و فخرا باقيا
حمل اللواء الهاشمي الأطوال
قد خصهم و اختصهم و اختارهم
رب الأنام لذا بغير تعمل
هم بالمديح احق لكن ربما
ضاعت حقوق بالعدا و العذل
إن غيرهم بالمال شح و ما سخا
جادوا يبذل النفس دون تعلق
البادلون نفوسهم و نفيسهم
في حب مالكننا العظيم الأجل
كم يضحك الرحمن من فعلاتهم
يوم الكريهة، نعم فعل الكمل

الصادقون الصابرون لدى الوغى
 الحاملون لكل ما لم يحمل
 أن نال غيرهم اللذائذ مسرفا
 هم يبتغون قراع كتب الجحفل
 و أذ شيء عندهم لحم العدا
 و دماؤهم كزلال عذب المنهل
 النازلون بكل ضنك ضيق
 رغما على الأعدا بغير تهول
 لا يعرف الشكوى صغير منهم
 أبدا و لا البلوى إذا ما يصطلي
 ما منهم إلا شجاع قارع
 أو بارع في كل شيء مجمل
 كم نانفسوا كم سارعوا كم سابقوا
 من سابق لفضائل و تقضل
 كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا
 أقوى العداة بكثرة و تمول
 كم صابرو اكم كابروا كم غادروا
 أقوى اعدايهم كعصف مؤكل
 كم جاهدوا كم طاردوا و تجلدوا
 للنائبات بصارم و بمقول
 كم قاتلوا كم طاولوا كم ماحلوا
 من جيش كفر شبه موج يعتلي
 كم ثبتوا كم بنتوا كم شتتوا
 شمل الكوافر باقتحام الجحفل
 كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا
 بتسارع للموت لا يتمهل

كم شردوا كم ببدا و تعودوا
 تشتيت كل كتيبة بالصيقل
 يوم الوعى و سيوفهم مسفوحة
 ممسوحة بثياب كل مجندل
 لا يحزنون لهالك بل عندهم
 موت الشهادة غبطة المتسول
 مال موت بالبيض الرقاق نقيصة
 و النقص عندهم بموت الهمل
 يارب ! إنك في الجهاد أقتهم
 فبكل خير عنهم فتفضل
 و عندما التجأ إخوانه سعيد، و مصطفى، و الحسين، إلى المغرب الأقصى قال
 متشوقا إليهم:
 يا سواد العين يا روح الجسد
 يا ربيع القلب يا نعم السند
 كنت لي قرّة عين و بها
 راح قلبي لا بمال و ولد
 فرمى الدهر بعين اسمها
 مذ نأيتم لا أرى بها أحد
 أيروق الطرف شيء بعدكم؟
 لا ! و رب البيت في هزل وجد
 مذ ترحلتم أذبتم مهجتي
 و دموعي فائضات من كمد
 قد فنى صبري و لم يفنى الجوى
 ما أراه فانيا حتى الأبد
 و اندوى ما كان رطبا يانعا
 و وهي العظم، و لم يبقى الجلد

مذ تواريتم توارى فرحي

ما يسر القلب في أخذ ورد

طال ليلي يا أحبائي و لم

من مجاز مرسل عندي معد

كم أنادي حين يبدو صحبه

ما (سعيد) هل خيال لي يرد

لرد الروح للجسم، و يا

(مصطفى) هل من دواء للكبد

شاقني حب (حسين) شاقني

باقتراب يحيى ميتا لم يعد؟

فإذا ما أقبلت فتبدلوا

و إذا ما أدبرت فارضوا بود

و عندما حكمه بعض الأمراء الفرنسيين في الخلاف الناشب بينهم. هل الحضر أفضل

من البدو؟ أجاب و هو بفرنسا بتفضيل البدو. فقال:

يا عاذر الامرئ قد هام في الحضر

و عاذلا لمحب البدو و القفر

لا تذمن بيوتا حف محملها

و تمدحن بيوت الطين و الحجر

لو كنت تعلم ما في البدو تعذري

لكن جهلت و كم في الجهل من ضرر

أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا

بساط رمل به الحصباء كالدرر

أوجلت في روضة قد راق منظرها

بكل لون جميل شيق عطر

تستشقن نسيما طب منتشقا

يزيد في الروح لم يسر على قدر

أو كنت في صبح ليل هاج هانته
 علوت في مرقب أو جلت بالنظر
 رأيت في كل وجه من بسائطها
 سرىا من الوحش يرعى أطيب الشجر
 فيالها وفقة لم تبقى من حزن
 في قلب مضنى و لا كد لذي ضجر
 نباكر الصيد أحيانا فنبتغه
 فالصيد منا مدى الأوقات في دعر
 فكم ظلمنا ظليما مع نعماته
 و إن يكن طائرا في الجو كالقصر
 يوم الرحيل إذا شددت هوادجنا
 شقائق عمها مزن من المطر
 فيها العذاري و فيها جعلنا كوى
 مرقعات بإحداق من الحور
 تمشي الحداء لها من خلفها زجل
 أشهى من الناي و السنطير و الوتر
 و نحن فوق جياذ الخيل نركضها
 شليلها زينة الاكفال و الخصر
 نطارذ الوحش و الغزلان نلحقها
 على البعاد و ما تتجو من القمر
 نروح للحي ليلا بعد ما نزلوا
 منازل ما بها لطح من الوضر
 ترابها المسك بل أنقى و جاد بها
 صوب الغنائم بالأصال و البكر
 نلقي الخيام و قد صفت بها فغدت
 مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

قال الأولى قد مضوا قولاً يصدقه
 نقل، و عقل و ما للحق من غير
 الحسن يظهر في بيتين رونقه
 بيت من الشعر أو بيت من الشعر
 أنعامنا إن أتت عند العشي تخل
 أصواتها كدوي الرعد بالسحر
 سفائن البريل أنجى لراكبها
 سفائن البحر كم فيها من الخطر
 لنا المهاري و ما للريم سرعتها
 بها و بالخيول لنا كل مفتخر
 فخيالنا للحرب دائماً مسرجة
 من اسغات بنا بشره بالظفر
 نحن الملوك فلا تعدل أحدا
 و أي عيش لمن قد بات في حقر؟
 لا نحمل الضيم ممن جار نتركه
 و أرضه و جميع العز في السفر
 و إن أساء علينا الجار عشرته
 نبين عنه بلا ضرر و لا ضرر
 تبيت نار القوي تبدو لطارقنا
 فيها المداواة من جوع و من خصر
 عدونا ما له ملجأ و لا وزر
 و عندنا عاديات السبق و الظفر
 و من شعره في التغزل في زوجته:
 أقاسي الحب من قاسي الفؤاد
 و أراعاه و لا يرعى ودادي
 أريد حياتها و تريد قتلي

بهجر، أو بصد، أو بعاد

و أبكيها فتضحك ملء فيها

و أسهر و هي في طيب الرقاد

و تعمى مقلتي إن ما رأيتها

و عيناها تعمى عن مرادي

و تهجرني بلا ذنب تراه

فظلمي قد رأيت دون العباد

فسيرة هذه الأشعار الغزلية تفيدنا بأن العلاقة بين الشاعر و بين من يحب بقيت على انحباسها السلبي في أغلب المكاشفات، بل لقد آلت إلى حال من التعارض السافر، و هو ما حدا بالشاعر في بعض قصائده إلى أن يعترف بأن موقف الحبية منه هو المخالفة أبدأ، بحيث كان لا يعروه وضع نفسي أو مزاجي أو شعوري إلا تلبسها وضع يعاكسه، و ذلك ما كان يضاعف من صابته.

و ابكيها فتضحك ملء فيها

و أسهر و هي في طيب الرقاد

و أبذل جهدي في لثم فيها

فتمنعي و أرجع صاد¹.

و اغتفر العظيم لها و تحصي

على الذنب في وقت العداد

و أخضع ذلة فتزيد تيتها

و في هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عز

و ما انفك في ذلي أنادي

و الهيئة التي يتمثلها الشاعر للحبيبة في حسه و وجدته هي هيئة الإدبار و الصدود أبدأ، و الصورة التي يرسخها لها في الأذهان هي صورة التمتع و الإيغال في العزوف.

¹ الديوان، ص 133.

و طبيعي أن تنهياً للشاعر أحوالاً تشبيهية يجسد الحبيبة الصادة من خلالها، لذلك وجدناه يعبر عن عواطفه نحوها و هي على تلك الهيئة من الشرود و النفور فينعتها بالغزال و الطبي و هما توصيفان من جملة توصيفات دأب الشعراء على توظيفها إعراباً عن صلة القطيعة و اليأس التي تربطهم بحبيباتهم.

لقد رأينا الأمير يكرر في أكثر من قصيد استخدام هذا التشبيه المعبر عن حال العلاقة النابية التي كانت تجمعهم بحبيبتة:

ألا من منصف من ظبي قفر

لقد أضحت مراتعه فؤادي

و من عجب تهاب الأسد بطشي

و يمنعي غزال عن مرادي

و وجدناه في قصيد أحباب قلبي ينعتها بلفظ الغزال أيضاً:

هل الغزال الذي أهواه يسعني

بالوصل يوماً كما قد كان في العهد

هل النفور الذي أهواه يسعني

بالقرب من بعد ما أبدي من الصد¹.

إنه أمر لا يمكن أن يكون صدر عن الشاعر لمجرد استخدام لفظي مجاني أو تمثل بنائي جرياً على منوال المخاطبات الشعرية، و ترديدا لصورة تواترات عند الشعراء في مواقع الإعراب عن مضمراتهم العاطفية.

بل الذي لا نشك فيه أن وراء هذه الصورة التقليدية، عواطف لا مرأى فيها كانت تلح على الأمير و لم يسعه إلا أن يترجم عنها على هذا النحو، أي من خلال توظيف لفظ الغزال و الطبي و ما شاكلهما من ألفاظ تواتر بها بناء صورة التمتع و الشرود في تراثنا الشعري... تلك الصورة التي كانت تعكس العلاقة القديمة بين الحبيب و حبيبه، حيث كانت منزلة الأنثى ترقى إلى الكمال الأخاذ من خلال ما تلتزمه من مواقف التآبي و التصون و التعزز.

¹ الديوان، ص 137.

و على غرار ما سبق نجد الشاعر في قصيد " أود بأن أرى تأبى الصحاري "، قد كرر الوصف و شبه الحبيب بوحش البراري، و استخدم لفظ الظبي، و هو من مترادفات الغزال، فالصورة التقليدية البدوية في الأبيات و السياقات جميعا، هي، و التشبيه تراثي، استدعائي، لأنه متواتر في المخيال العاطفي العربي، يقول مستفتحا القصيدة:

أود بأن أرى ظبي الصحاري و أرقب طيفه و الليل سار

و يواصل الحديث عنها بذات اللفظ التشبيهي قائلا:

و هذا الظبي لا يرعى ذماما

و لا يرعى مؤانسة لجار¹.

و هو يعترف بأن علة انحداره أمامها هي امتلاكها لجمال لا يقاوم، ثم نجده و كأنه يأبى بعد هذا الاعتراف إلا أن يستدرك فيؤكد أن أهل الشأن و راسخي القدم في الرجولة هم دائما ضحايا الجمال و هم من تنفذ سهامه فيهم بلا مقاومة.

و سلطان الجمال له اعتزاز

على ذي الخيل و الرجل الجواد

فإن رضيت على أرت محيا

كما يعاينها تارة أخرى و يتحدث عنها من خلال صفة الجمال التي تميزها:

أثاره الشعرية:

1- ديوان شعره متعدد الأغراض.

2- المقرض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل و الإلحاد.

3- كتاب المواقف .

4- ذكر العاقل في تنبيه الغافل.

¹ الديوان، ص 158- 159.

وفاته:

توفي مساء يوم الجمعة التاسع عشر من رجب سنة 1300 الموافق لليوم 24 من مايو (أيار) سنة 1883، و كانت وفاته بداره في "دمر" ثم نقل منها صباحا إلى "دمشق" ليجاور ظهر يوم السبت الشيخ محي الدين بن عربي الحاتمي على سفح جبل "فاسيون" بالصالحية يجمعها ضريح واحد، و نوع متشابه من الشعر يؤرخ لوفاتهما، و أكبر مؤلفاتهما، مثلما جمع بينهما في الحياة على بعد ستة قرون و نصف القرن كثير من الفكر، و قليل من الشعر في مناصب العلم و فنون الأدب.

الفصل الثالث: مقاربات في مفهوم الحنين .

أولاً: مفهوم الحنين لغة وإصطلاحاً.

ثانياً: مثيرات الحنين.

ثالثاً: مواطن الحنين في قصيدة "الباذلون نفوسهم".

رابعاً: الجمالية الفنية في القصيدة.

أولاً : مفهوم الحنين لغة وإصطلاحاً.

مفهوم الحنين: ورد لفظ "الحنين" في العديد من المعاجم ، ففي معجم الوسيط -مثلاً- جاء الحنين بمعنى الرقة والتراحم والإشتياق والعطف ، فالحنان : رقة القلب والرحمة ، وفي التنزيل العزيز "وحنانا من لدنا " والحنة رقة القلب والحنون : الشفيق وتحن عليه: ترحم ،إستحن إلى الشيء واشتاق¹

والحنين: الشوق(حن)عليه حنوا: عطف.²

وفي "لسان العرب" نقلاً عن ابن منظور: "الحنين من فعل حنن والحنان من أسماء الله - عزوجل- وجاءت بمعنى الرحيم ، ويقال: حن قلبي إليه، فهذا نزاع وإشتياق منغير صوت....والحنان الذي يحن إلى الشيء، والحنة بكسر الحاء رقة القلب، إمراة حنانة نحن إلى زوجها الأول وتعطف عليه، ومصدر الفعل: الحنين".³

وجاء في القاموس المحيط لصاحبه "الفيروز أبادي": الحنين الشوق وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح أما في المعنى الإصطلاحي : فالحنين عند الإنسان...يتصل إتصالاً وثيقاً بالمفهوم المكاني للغربة.

الحنين إلى الأوطان غريزة في النفوس سواء أكان عند الإنسان أم الحيوان، يتجلى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانها و مواطنها، و حنين الطير إلى عشه مهما أخذ و بعد به، يعود إلى وكره قاطعاً مئات الأميال بل الآلاف حتى يجد قرارة نفسه في وطنه، و كذلك يقال في بقية الحيوانات، كالقطة و الكلاب، و الكلاب أشد حنيناً و وفاء من بقية الحيوان، فإذا كان هذا حنين الحيوان فكيف لا يحن الإنسان إلى أرضه و وطنه مهما عاش في حرمان وبؤس، و عانى من الظلم و الجوع و الفاقة، و خير دليل على ذلك هؤلاء المهاجرون إلى بلاد الدنيا

¹ يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي-الحنين إلى الأوطان ،دار مجدلاوي، عمان، ط1،2008،ص5.

² المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية والإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشرق الدولية ، مصر، ط4،2004،ص203

³ ابن منظور، لسان العرب ،تح:عبد الله عي الكبير وآخرون،دار المعارف ،القاهرة،مصر،مادة ح نج 3 ص265

الجديدة، و قد كسبوا المال و الجاه و الترف، و لكنهم يحنون أبدا إلى أوطانهم، و يتحسرون على ما يجري فيها من مصائب و ضيم و نكبات و عدوان، و في الآيات الكريمة دلالة على حب الناس لأوطانهم و لو قتلوا في سبيلها، قال تعالى: " و لو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم" (النساء 66). و في الحديث النبوي (حب الأوطان من الإيمان)، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحن إلى مكة وطنه، فكان إذا جاء أحد منها يسأله عنها فتغرورق عيناه بالدموع، و كذلك كان الصحابة يحنون إلى ديارهم، و لزوم الأوطان غبطة، قيل لبعض الأعراب: "ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، و الجلوس مع الإخوان، قيل فما الذلة؟ قال: التنقل في البلدان، و التثني عن الأوطان". و لمكانة الوطن في نفوس الناس فقد ألف المؤلفون في التراث العربي أكثر من ستة عشر كتابا وصل بعضها.

و الحنين إلى الأوطان ظاهرة إنسانية عامة في نفوس البشر، و إن كان حب الأوطان عند العرب أكثر وضوحا لأن الشعر سجل هذه الظاهرة، منذ الجاهلية حتى العصر الحديث، مع إختلاف يسير فيها بين البدوي و الحضري، و للوطن في كل بيئة أثر واضح في سلوك الإنسان و تفكيره و مظهره من حيث الملبس و المأكل و الطبايع و العادات. يا هذا ! الغريب في الجملة من كله حرقه، و بعضه فرقة، و ليله أسف، و نهاره لهف ، و غداؤه حزن، و عشاؤه شجن، و جميعه فتن، و مفرقه محن، و سره علن، و خوفه وطن.

الغريب من إذا دعا لم يجب، و غذا هاب لم يهب.

الغريب من إذا استوحش استوحش منه: استوحش لأنه يرى ثوب الأمانة

ممزقا، واستوحش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل محرقا.

الغريب من فجعته محكمة، و لوعته مضمرة.

الغريب من لبسته خرقة، و أكلته سلقة، و هجعتة خفقة.

دع هذا كله ! الغريب من اخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه. بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه.

يا هذا ! انت الغريب في معنالك.

أيها السائل عن الغريب! أعمل واحدة و لا أقل منها، و إذا أردت ذكر الحق فانس ما سواه، وإذا أردت قربه فابعد عن كل ما عداه، و إذا أردت المكانة عنده فدع ما تهواه لما تراه، و إذا أردت الدعاء إليه فميزه مالك مما عليك في دعواه .

مثيرات الحنين و الغربة.¹

الغريب الذي يهزه الحنين و الشوق إلى وطنه تذكره و تهيجه مثيرات تعصف به و تثير أشجانته، و كثيرا ما تكون سببا لعذابه، فهي تذكره بغربته، و تذكره بأحبابه و أهله و أوطانه، منها هذا البرق الذي يتوهج من ناحية وطنه، و الريح التي تأتي بأنسام أرضه و شذى أحبابه، و الناقة رفيقة أسفاره التي تحن إلى أرضها و مراعيها، و هديل الحمام الذي يثير أشجانته، و يذكره بأحبابه، و صوت حبيبة القلب التي تشكو الفراق و البعاد و تعاتبه وتحاوره، و قطرات المطر أو الندى التي تذكره بدموع الزوجة و الأسرة حين الوداع، و نجوم السماء و الثريا التي يسهر و إياها ليلا، فيذكر وطنه الذي تظله هذه النجوم و سمره و من يحب و هي ترعاهم ببريقها، و السحب الجارية التي يتمنى أن تسقي أرضه ليعم الخير فيها، و يتمنى أن ينعم و أهله بخيرها بعد أن تنكشف الغمة و يجتمع الشمل، كل تلك المحفزات و الرؤى تثير عواطف الحنين و أشواق العودة إلى الأحبة و الوطن الحبيب، و قد حفل الشعر الذي مر بنا و غيره بهذه المثيرات فأبكتهم و أشجتهم و أنطقتهم بروائع شعر الغربة و الحنين.

و هذه بعض النماذج مما جاء في مثيرات الشجا و الحنين:²

¹ يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي ص18

² يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي ص20

العين و الدموع:

يقول الحارث المخزومي:

بالخيف هاجت شؤوننا غير جامدة

و يقول الصمة القشيري:

ألا من لعين لا ترى قلة الحمى

و قال:

فليست عشيات الحمى برواجع

و قال:

بكت عينك اليسرى فلما زجرتها

محمد بن بشير الخارجي:

باتت لعينك عبرة و سجوم

مالك بن الريب:

أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى

طريح بن اسماعيل الثقفي:

فاستبق عينك لا يودي البكاء بها

كثير عزة:

فطورا أكثر الطرف نحو تهامة

الصمة القشيري:

نظرت و طرف العين يتبع الهوى

الريح: و مما يثير الشوق و الحنين الريح و هبوبها و نسيمها

يقول يزيد بن لطرية:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

عبيد الله بن الحر:

فهيج لي مسراك وجدا على وجد

ستعلم إن مالت بي الريح ميلى
هدية ابن الخرشم:
ألا ليت الرياح مسخرات
فنخبرنا الشمال إذا أنتنا
جميل بثينة:
أيا ربح الشمال أما تريني
هبي لي نسمة من ربح بثن
الصمة القشيري:
إذا ما أنتنا الريح من نحو أرضكم
الأحوص الأنصاري:
أصاح ألم تحزنك ربح مريضة
فإن الغريب الدار مما يشوقه
البرق: و مما يثير الشوق و الشحن و يذكر بالأهل و الأوطان برق السماء
يقول جميل بثينة:
و ليلة بتنا بالجينة هاجني
السمهري العكلي:
أعني على برق أريك وميضه
أرقت له و البرق ذون طمية
الصمة القشيري:
و حنت قلوصي آخر الليل حنة
حنت في تنائبها و شبت لعينها
العرجي:
أرقت يسلى إن ذا الشوق يأرق
لبرق تبدى آخر الليل يخفق

أشيم سماح من بعيد و ربما تشام البروق من بعيد فتصدق
فما ذقت من نوم و مازال عاملا إلى الصبح ذلك البارق المتألق

نجوم السماء:

مالك بن الريب:

أقول لأصحابي إرفعوني فإنه يقر بعيني أن سهيل بدا ليا

المتوكل الليثي:

راعي التاليات من الثريا ومع العين منحدر سجاما

قيس لبنى:

و تجمعا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول

الأحوص:

أراقب النجم كالحيران مرتقبا و قلص النوم عن عيني فانشمرا

الشمردل اليربوعي:

أرعى الثريا تقود التاليات معا كما تتابع خلف الموكب الرفق

معارضات شهيلا و هو معترض كأنه شاة رمل مفرد لهق

الحمام: كثير ما يهيج الشوق و يبعث الحنين بصوت الحمام.

يقول أبو دهب الجمحي:

و أرقني بالري نحو حمامة فنحت و ذو البث الغريب ينوح

ألا يا حمام الأيك إلك حاضر و غصنك مياد ففيما تنوح

العرجي:

و مما يهيج القلب يا صاح نحوها إذغ باكر الأيك الحمام السواجع

المتوكل الليثي:

طربت و شاقني يا أم بكر دعاء حمامة تدعوا حماما

جدر بن معاوية:

ألا قد هاجني فازددت شوقا بكاء حمامتين تجاوبان

يزيد بن الطثرية:

تذكرت ليلة أن تغنت حمامة و أنى بليلى و الفؤاد قريح

جميل بثينة:

أبيكي حمام الأيك من فقد ألفهو أصبر ! ما عن بثينة من صبر

الشمردل اليربوعي:

و هاتفتي فوق الغصون تفجعت لفقد حمام أفدرتها حباله

من الورق بالأصيف نواحة الضحى إذا الغرقد التفت عليه غياطله

جميل بثينة:

و يوم وردنا هاجت لي البكا من الورق حماء العلاطين تصدح

مجنون ليلى:

ألا ليتنا كنا حمامي مفازة نظير وناوى بالعشي إلى الموكر

و شعراء آخرون هاج الحنان حنينهم فذرفوا الدمع الغزير شوقا و حنيننا، قال شقيق بن

السليك الأسدي:

و قد هيجت شوقي حمامة أيكة تتادي حماما فاستباححت حمى وجدي

فقلت تعالي نبك من ذكر ما مضى فنذكر منه ما نسر و ما نبدي

فإن تسعدني نبك عبرتنا معا و إلا فإني سوف أسفحها وحدي

و يقول شاعر آخر إن الحمام يهيج الأشجان، فيألم السامع العاشق و هو لا يتألم، و

يثير البكاء و هو لا يبكي .

حمام لم تهتج و هيجن ذا هوى بتنواحها بين الغصون النواصر

تُبكي و تَبكيو لكن هتوفها يهيج لوعات القلوب الزوافر

و الشعر الذي قيل في الحمام و ما نهيج من لوعة و حنين كثير في كل العصور، و جاء

بعض منه في تضاعيف هذا الكتاب.

الإبل: و كانت الإبل شريكة الإنسان في حله و ترحاله، تحن كالإنسان إلى الرفقة و الوطن، و كثير ما تهيج عواطف صاحبها و تشاركها الهموم و لوعة الفراق.

يقول الأحوص يحدث نفسه:

فأنت إلى سلمى تحس صباية كما حن آلاف المطي السواجر
الفرزدق:

و ليلة بتنا دير حسان نبهت هجودا و عيسا كالخسيات ضُمرا
بكت ناقتي ليلا فهاج بكأؤها فؤادا إلى أهل الوريعة أصورا
تروم على نعمان بالفجر ناقتي و إن هي حنت كنت بالشوق أعذرا
الصمة القشيري:

و وجدي بطيا وجد بكر غريرة على والدها فارقاها فجنت
و وجدي بطيا وجد هيماء حئت عن الماء كانت منذ خمسين ظلت
مالك بن الريب:

و هل أترك العيس الأعوالي بالضحى بركبانها تعلوا المتان الفياfia
وعر قلوصي في الركاب فإنها ستفلق أكبادا و تبكي بواكيا

و يذكر الصمت القشيري ناقتة و حنينها و يغني نفسه و معاناته، و هذه الأبيات من أروع صور الشوق و الحنين في سياق حوار الشاعر و ناقاته:

و حنت قلوصي آخر الليل حنة فيا روغة ما راع قلبي حنينها.

جنت في تبائها و شب لعينها سنا بارق وهنا فجن جنونها

فقلت لها صبرا فكل قرينة مفارقها . لا بد يوما . قرينها

فما برحت حتى ارعونا لصوتها و حتى انبرى منا معين يعينها

تحن إلى أهل الحجاز صباية و قد بت من أهل الحجاز قرينها

فيا رب أطلق قيدها و جريها فقد راع أهل المسجدين حنينها

فقلت لها: حني رويدا فإنني و إياك نبدي عولة سنبينها

شرح القصيدة واستنطاق مواطن الحنين بها:

ترى هل يعلم البشر أن أروع نعمة في الوجود أو على الأقل بالنسبة لشعراء هي نعمة الكتابة.

لن نجد صدرا أرحب من الورقة، و صديقا أوفى من القلم عندما يضيق بنا هذا العالم ونرى الوجه المتجهم لدينا عندما نحترق شوقا و ألما لأشياء نفتقدها في هذا الواقع المر !. عندما تمزقنا الانكسارات و القوانين الظالمة و التي تجعل منا أصفارا معدومة؟ وحين تطالبنا مصلحة الضرائب المعنوية أن ندفع ثمن أرباح لم نطلها بأيدينا أبدا، ساعتها نلجأ للورقة و القلم بإحساس يتأرجح بين اللهفة و الصدق، صدق النبي في رسالته، و بثقة الرضيع بين أحضان أمه، و بحاجة الضعيف لرحمة خالقه....

الحنين ظاهرة إنسانية و موضوع شعري وجداني رقيق، استنفذ قاموس اللغة العاطفي و الانفعالي، ذات الرصيد النفسي الضخم، و الإنساني، و قد حفل شعر الأمير بروائع ترجمت آلامه، و أشجانه حين هزه الشوق إلى وطنه و أحبته بقصائد ذهبية شقت طريقها إلى الخلود في ذاكرة قرائها جيلا بعد جيل و من بين هاته الروائع رائعة " الباذلون نفوسهم " و التي نظمها الأمير بحصن " تازة" حين أشاع الفرنسيون أن الأمير عبد القادر قد قتل ليفزع جيوشه في جبال جرجرة الواقعة في شمال الجزائر و لما علم بذلك بعث بالقصيدة إلى جيوشه غير آبه بتلك الإشاعات

حيث استهل قصيدته بأسلوب وجداني رقيق عبر به شاعرنا عن مشاعره العذبة المثقلة بالوجع و الشكوى في استغراق بديع في مناجاة ريح الجنوب التي أودع بين نسائنها تحية مشتاق و مغرم لجيوشه بجبال جرجرة.

يا أيها الريح الجنوب أتحملي	مني تحية مغرم و تجملي
و أقر السلام أهيل ودي و أنشري	من طيب ما حملتي ريح قرنفل
خلي خيام بني الكرام و خبري	أنني أبيت بحرقة و تبلبل
جفني قد ألفا السهار لبيئكم	فلذا غدا طيب المنام بمعزل

كم ليلة قد بتها متحسرا كميبت أرمذ في شقا و تململ

سهران ذو حزن تطاول ليله فمتى أرى ليلي بوصلتي ينجلي؟ !

ماذا يضر أحبتي لو أرسلوا طيف المنام يزورني بتمثل؟

كل الذي ألقاه في جنب الهوى سهل سوى بين الحبيب الأفضل

و قد امتلأ هذا القسم بالألفاظ العاطفية و الانفعالية و المفعمة بالألم و الأمل حيث أنها تصب كلها في حقل دلالي يعكس و بوضوح حنين الأمير العميق لجنوده (الغرام، التجمل، الحرقه، التبليبل، السهاد، البين، التعسف، الشقاء، التململ، السهر، الحزن، تطاول الليل، الأحباب، الطيف،).

و بتكرار " صيغة الأمر " الذي يخرج إلى التوجع و الرجاء، و بالأسئلة المتلاحقة تارة بعتاب رقيق و رجاء جميل في آن يبعث أحبته له في المنام طيفهم؟

أسئلة يطرحها شاعرنا في منتهى الرقة و الشاعرية دون انتظار الجواب.

ماذا يضر أحبتي لو أرسلوا طيف المنام يزورني بتمثل؟

و بصيغة التصغير البديعة الدالة عن الدلال (أهيل، ودي).

و بالملاح البدوية (ريح الجنوب، الخيام، ريح القرنفل، الطيف، إقراء السلام).

و ببناء الجملة الشعرية بناءا عذبا و انسيابيا كيف لا و هي تصدر من وجدان رقيق تسامي بسيرته العطرة إلى المثالية.

ثم مضى يستكمل قصيدته بأبيات كانت تتأرجح بين الرجاء و الحرقه تارة و بين الحنين و الشوق تارة أخرى .

أدي الأمانة يا جنوب ! و غايتي

في جمع شملي يا نسيم الشمال

و كأن جسد الأمير الشاعر بالجنوب و روحه بالشمال و راح يقرأهم:

سلاما أزكى و أحلى من عبير قرنفل

و أهدي إلى من بالرياض حديثهم

أزكى و أحلى من عبير قرنفل

تهدي إلى طرائفها و ضرائفها

و لطائفها بعطر و تعسر

و انظر إلى هذا المقطع البديل التي تظهر به مواطن الشوق و الحنين واضحة.

حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي:

مه ! ذا محال و بك عنه تحول !

كيف التصبر عنهم ؟ ! و هم هم

أرباب عهدي بالعقود الكمل !

في البيت الأول تجلى حديث الروح لروح حين حاولت نفسه الصبر فأجابه مه ! و هو

اسم فعل و معناه أسكت فمحاولة الصبر من المحال

كيف التصبر عنهم؟ ! وهم هم

أرباب عهدي بالعقود الكمل !

يؤكد الأمير عن علاقته القوية و المتينة و الصداقة التي تربط بينه و بين جنوده

التي أبرمت عقودا بينهم و عهودا تقضي بالنصر أو الشهادة.

تمضي القصيدة في تعداد شمائل هاته النخبة التي تسامت في سلم الوطنية و بلغت

الذروة التي تستحق المديح و الفخر كيف لا و هم الصفوة التي ضحت بالنفيس و النفيس

في سبيل الله و الوطن.

تقديمهم نفسي و تقدي أرضهم

أزكى المنازل يا لها من منزل !

أفدي أناسا ليس يدعي غيرهم

حاشى العصابة و الطراز الأول

يكفيهم شرفا و فخرا باقيا

حمل اللواء الهاشمي الأطول

بين المديح و الفخر يستكمل شاعرنا قصيدته التي خص بها " الباذلون نفوسهم و نفيسهم " في حب الله و الوطن.

يكفيهم شرفا و فخرا باقيا
 حمل اللواء الهاشمي الأطول
 يعتز الأمير بأحفاده و أتباعه و أصوله الهاشمية الشريفة.
 هم بالمديح أحق لكن ربما
 ضاعت حقوق بالعدا و النذل
 إن غيرهم بالمال شح و ماسحا
 جادوا ببذل النفس دون تعلق
 الباذلون نفوسهم و نفيسهم
 قي حب مالكننا العظيم الأجل

ويأتي المقطع الأخير من القصيدة مؤكدا أن رضا الله سبحانه هو المرام المبتغى من الجهاد و الشهادة في سبيل الله.

كم يضحك الرحمان من فعلاتهم
 يوم الكريهة ! نعم فعل الكمل !
 والمقصود بالكريهة هي الحرب الشديدة.

الصادقون الصابرون لدى الوغى
 الحاملون لكل ما لم يحمل
 إن غيرهم نال اللذائذ مسرفا
 هم يبتغون قراء كتب الجحفل

هم الذين استبدلوا متاع الدنيا و ملذاتها بالاندماج في جيوش اختارت و استأذنت لحم العدا و دماؤهم كزلال عذب المنهل

و أذ شيء عندهم لحم العدا

و دماؤهم كزلال عذب المنهل
لا يعرف الشكوى صغير منهم
أبدا و لا البلوة إذا ما يسطلي
ما منهم إلا شجاع قارع
أو بارع في كل فعل مجمل

الصدق، و الصبر، و الشجاعة، و البراعة، صفات تحلى بها و سجلها شعر الأمير.

الجمالية الفنية في قصيدة البادلون نفوسهم

- استخراج الصور البيانية:

- 1- "تحصنت لا خوفا من الموت".
- 2- "إن منيتي قريبة مني " كناية عن قرب أجله وإحساسه بدنوه، وبلاغتها تشخيص المعنى وتجسيدها:.
- 3- "رضا الإله هو المنى" تشبيه بليغ حذف فيه وجه الشبه والأداة وبلاغته تكمن في جعل المشبه والمشبه به في نفس المنزلة وتقوية المعنى.
- 4- "يا أيها الريح الجنوب تحلمي" استعارة مكنية شبهت الريح بالإنسان حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته (تحلمي) وبلاغتها التشخيص والتجسيد المعنوي بصورة محسوسة وهي الإيجاز والمبالغة. نفس الصورة "تجملي وانثري".
- 5- الجناس الناقص: "تحلمي - تجملي" بلاغته تقوية المعنى وتوضيحه.
- 6- "أبيت بحرقة وتبلبل" كناية عن الشوق والحزن والألم.
- 7- "جفني ألف" استعارة مكنية شبه الجفن بالإنسان ، حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته(ألف).
- 8- "جفني ألف السهاد" كناية عن السهر الطويل وقلة النوم.

- 9- "حزن تطاول ليله" استعارة مكنية شبه الحزن باليوم، حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته وهو الليل.
- 10- "أرسلو طيف" استعارة مكنية شبه الطيف بشيء يرسل حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته (أرسلو).
- 11- "طيف المنام يزورني" استعارة مكنية شبه الطيف بإنسان يزور حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته.
- 12- " جنب الهوى" استعارة مكنية شبه الهوى بشيء له جنب حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته.
- 13- " تحلمي - تجلمي" تصريح وهو محسن بديعي.
- 14- " أدي الأمانة يا جنوب" شبه الجنوب بالإنسان الذي يؤدي الأمانة حذف المشبه به وتركت صفة من صفاته.
- 15- " طرائفها - ظرائفها- لطائفها" جناس ناقص لتقوية المعنى وتوضيحه.
- 16- " هم أرباب عهدي" تشبيه بليغ حذف الأداة ووجه الشبه جعل المشبه والمشبه به في نفس المنزلة.
- 17- " أبحل ريب الدهر" استعارة مكنية شبه الدهر بشيء يحل وحذف المشبه به وتركت صفة من صفاته.
- 18- " أركى المنازل" كناية عن الشرف والجاه والمكانة.
- 19- " الطراز الأوّل" تضمين من بيت حسان بن ثابت " شَمُ الأنوف من الطراز الأوّل" وهو محسن بديعي غرضه تقوية المعنى.
- 20- " الآل سيف" تشبيه بليغ حذف فيه الأداة ووجه الشبه وبلاغته جعل المشبه والمشبه به في نفس المنزلة.
- 21- " وجهت وجهي" اقتباس من قوله تعالى (سورة الأنعام الآية 79)، زاد المعنى وضوحاً وجمالاً.

خلاصة:

نستنتج من هذا كله أنّ الأمير عبد القادر امتداد لمدرسة أدبية أهم ميزاتها الشعرية تعود بنا إلى الماضي بلغة الحاضر وهي المدرسة الكلاسيكية الإحيائية البعثية. ومن خصائصها التي تجلت في قصيدته والمتمثلة في مظاهر التقليد:

- كالتميق اللفظي والزخرف البياني والبديعي:
- كالتصریح والاقْتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف.
- التضمين من الشعر القديم.
- جزالة الألفاظ وقوة الإيحاء.
- استعمال القاموس القديم.
- الخيال الحسي المأخوذ من البيئة العربية القديمة كالسيف ، التهاد.

ومن روادها: الأمير عبد القادر وأحمد شوقي، وحافظ ابراهيم.

الباذلون نفوسهم*

يا أيها الريح الجنوب ! تحمي	مني تحية مغرم و تجلمي ¹
و أقر السلام أهيل و دي وأنشري	من طيب ما حملت ريح قرنفل
خلي خام بني الكرام و خبري	أني أبيت بحرقة و تبلبل ²
حفني قد ألفا السهاد لبينكم	ففلذا غدا طيب المنام بمعزل ³
كم ليلة قدبتها متحسرا	كمبيت أرمل في شقا و تملل
سهران ذو خزن تطاول ليله	فمتى أرى ليلي بوصلي، ينجلي!؟
ماذا يضر أحبتي لو أرسلوا	طيب المنام يزورني بتمثل؟
كل الذي ألقاه في جنب الهوى	سهل سوى بين الحبيب الأفضل

* أشاع الفرنسيون أن الأمير عبد القادر قد قتل ليتفرغوا جيوشه في جبال " جرجرة " الواقعة في شمال الجزائر، و لما علم بذلك بعث بالقصيدة إلى جيوشه غير أنه بتلك الإشاعات.

¹ القصيدة في " أ "، ص 8- و " ت " ص 343، و ص ص 274-281.

² في " أ " و " ت " حلي.

³ في " أ " و " ت " جفني لقد ألف السهاد..

أدى الأمانة يا جنوب ! و غايتي في جمع شملي يا نسيم الشمال
 و أهدي إلى من بالرياض حديثهم أذكى و أحلى من عبير قرنفل
 تهدي إلى طرائفها و طرائفها و لطفائها بتعطر و تعسل
 حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي مه إذا محال و بك عنه تحول !¹
 كيف التصبر عنهم ؟ و هم هم أرباب عهدي بالعقود الكمل !
 أيحل ريب الدهر ما عقدوا؟ ! و كم حلت عقودي بالمنى المتخيل !
 تفديهم نفسي و تفدي أرضهم أركى المنازل يا لها من منزل !
 أفدي أناسا ليس يدعي غيرهم حشا العصابة و الطراز الأول ²
 يكفيهم شرفا و فخرا باقيا حمل اللواء الهاشمي الأطول
 قد خصهم و اختصهم و اختارهم رب الأنام لذا بغير تعمن
 هم بالمديح أحق لكن ربما ضاعت حقوق بالعدا و الذل
 إن غيرهم بالمال شح و ما سخا جادوا ببذل النفس دون تعلل
 الباذلون نفوسهم و نفيسهم في حب مالكن العظيم الأجل
 كم يضحك الرحمان من فعلاتهم يوم الكريهة ! نعم فعل الكمل !³
 الصادقون الصابرون لدى الوغى الحاملون لكل ما لم يحمل
 إن غيرهم نال اللذائذ مسرفا هم يبتغون قراع كتب الجحفل ⁴
 و اللذة شيء عندهم لحم العدى و دماؤهم كزلال عدم المنهل
 النازلون بكل ضحك ذيق رغما على العدا بغير تهول
 لا يعرف الشكوى صغير منهم أبدا و لا البلوى إذا ما يصطلي
 ما منهم إلا شجاع قارع أو بارع في كل فعل مجمل
 كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا من سابق لفضائل و تفضل
 كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا أقوى العدا بكثرة و تمول

¹ مه: اسم فعل و معناه أسكت.

² البيت على صلة بقول حسان ابن ثابت: شم الأنوف من الطراز الأول.

³ كم يضحك الرحمان : أراد رضا الله سبحانه، ة الكريهة: الحرب الشديدة.

⁴ الجحفل: هو الجيش الكثير المدمج.

أعتا أعاديهم كعف مؤكل ¹	كم صابروا كم كابروا كم غادروا
للنائبات بصارم و بمقول ²	كم جاهدوا كم طاردوا و تجلدوا
من جيش كفر باقتحام الجحفل ³	كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا
بتسارع للموت لا يتمهل ⁴	كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا
تشتيت كل كتيبة بالصيقل ⁵	كم شردوا كم بددوا و تعودوا
عند الصياح له مشوا بتهلل ⁶	يوم الوغي يوم المسرة عندهم
ممسوحة بثياب كل مجندل	فدماؤهم و سيوفهم مسفوحة
موت الشهادة غبطة المتحول ⁷	لا يحزنون لهالك بل عندهم
و النقص عندهم بموت الهمل ⁸	ما الموت بالببيض الرقاق نقيصة
فبكل خير عنهم فتقل	يا رب ! إنك في الجهاد أقمتمهم
صبرا و نصرا دائما بتكمل	يا رب ! يا رب البرايا ! زدهم
و اغفر و سامح يا إلهي! عجل ⁹	و افتح لهم مولاي ! فتحا بينا
في عين من هو كافر بالمرسل	يا رب ! يا مولاي ! و أبقيهم قذى
و الطف بهم في كل أمر منزل	و تجاوزن مولاي ! عن هفواتهم
كن راضيا عنهم رضا المتفضل	يا رب ! و اشملمهم بعفو دائم
يا رب ! و اشملمهم بخير تشمل	يا رب ! لا تترك وضيعا فيهم
متشفعا بشفيح كل مكمل	متوسلا مولاي ! في ذا كله
لمحمد غيث الندى المسترسل ¹⁰	وجهت وجهي في الأمور جميعها
و الآل سيف سطا في الجحفل	صلى عليه الله ما سح الحي
- و حياتهم - من حب غيرهم عفا	و يكون بيت نزوله قلبي الذي

¹ في " أ " و " ت " أقوى أعاديهم.

² الصارم: السيف: المقول: اللسان.

³ في " أ " و " ت " كفر شبه موج يعتلي و بعد البيت هذا آخر في " أ " و " ت " و هو مفقود في نسخة " حقي "، و البيت هو :

" ردكم ثبثوا كم بنتوا كم شنتوا شمل الكوافر باقتحام الجعفل "

⁴ أدلجوا: ساروا ليلا .

⁵ الصيقل: السيف المتقن الصنع.

⁶ في " ت " عند الصياح.

⁷ في " أ " غبطة المثلوم، و في " ت " غبطة المثلوم.

⁸ الببيض الرقاق: السيوف الحادة.

⁹ و افتح... فتحا بينا: مأخوذ من قوله سبحانه: " إن فتحنا لك فتحا مبينا " الفتح ، 1.

¹⁰ وجهت وجهي: من قوله: - وجهت وجهي للذي فطر السماوات - و الأرض، الأنعام 79.

ضيف له نزل لدي كرامة كبد شواها البعد في جمر شفا
 يا سعد ! إن كنت البشير بوصله فلقد أتيت على المسرة و الوفا
 لو أن نفسي لي إليك بذلتها و أراه بذل مقصر ما أنصفا ¹
 و تكون يا سعد ! المساعد للذي - من هجر من يهواه - صار عل الشفا
 لم يبقى يوم البنين و الهجر - الذي خلقا لتعذيب الأحبة مسعفا
 إلا صبايته و جسما قد غدا ملقا كشن بالفلا لن يخصفتا ²

¹ في "أ" و أراها .

² الثن: القرية الصغيرة، و الصباية: البقية، و الخصف: إصلاح الحال بعد الفساد، أو ترقيع ما أصيب بثقوب.

خاتمة

في محاولة متواضعة، كان هذا البحث استتطاقا لمشاعر الحنين في شعر الامير عبد القادر، و خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها.

- أن الشعر الجزائري ضارب بجذوره في أعماق التاريخ، و أن أرض الجزائر أنجبت
- أن قصيدة " الباذلون نفوسهم " كانت أنموذجا يعكس تجربته الشعرية التي سكب فيها شعوره بالغربة و إحساسه بالوحشة و الحنين إلى دياره الأولى، فقد استنفذت القاموس اللغوي و العاطفي و الانفعالي حيث ترجمت ألامه و أشجانه حين هزه الشوق إلى وطنه و خليفته بجبال جرجرة حين أشاع الفرنسيون أن الأمير عبد القادر قد قتل ليفزع جيوشه في جبال جرجرة و لما علم بذلك بعث بالقصيدة إلى جيوشه غير أنه بتلك الاشاعات و بأسلوب وجداني رقيق عبر شاعرنا عن مشاعره العذبة المثقلة بالوجع و الشكوى بألفاظ مفعمة بالآلام و الامل حيث أنها تصب كلها في حقل دلالي يعكس و بوضوح حنين الشاعر العميق لخليفته و جنوده.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الأمير عبد القادر، ديوانه، تح، الدكتور العربي دحو، ط3، 2007 - الجزائر.
- 2- بوعزيز يحيى ، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري سيرته الذاتية وجهاده، طبعة خاصة، 2009، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 3- الجبوري يحيى ، الحنين والغربة في الشعر العربي الحنين إلى الأوطان، دار مجدلاوي، عمان، 2007، ط1، 1422هـ-2008م.
- 4- جليل كمال الدين، الشعر العربي و روح العصر، دار العلم لملايين،بيروت، 1964، ص116.
- 5- خرفي صالح : - الشعر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر
- صفحات من الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر
- 7- دودو أبو العيد ، كتب و شخصيات الشركة الوطنية لنشر و التوزيع، الجزائر .
- 8- الركيبي عبد الله - دراسات في الشعر الجزائري الحديث ش. و. ن. ت الجزائر 1986،
-الأوراس في الشعر العربي، ش. و. ن. ت الجزائر 1982،
- 10- سعد الله أبو القاسم:- دراسات في الأدب الجزائري، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007.
- محمد الشاذلي القسنطيني، دار الرائد،الجزائر
- شاعر الجزائر محمد العيد ، الطبعة الثالثة، 1984.
- أوراق الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1967،
- أغنيات نضالية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971،
- منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب تونس 1976.
- 16 -السياب بدر شاکر ،ديوانه ، دار العودة، بيروت، 1971،
- 17- شريط عبد الله، من واقع الثقافة الجزائرية، الجزائر، ط 2، 1981.
- 18 -صلاح عبد الصبور، الناس في بلادي، ، دار الآداب، بيروت، 1957،

- 19- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 1990، ج1.
- 20- مصايف محمد ، دراسات، في النقد و الأدب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.
- 21- ابن منظور، لسان العرب ،تح:عبد الله عبد الكبير وآخرون،دار المعارف ،القاهرة،مصر.
- 22 -نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار الآداب، بيروت، 1962.
- 23- ناصر محمد ، الشعر الجزائري الحديث إتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2006م.
- 24-الوزير محمد السيد ، الأمير عبد القادر الجزائري، ثقافته وآثارها في أدبه، المؤسسة الوطنية للكتاب، المطبعة الأهلية، بيروت، سنة1324هـ.

ملخص البحث:

وصفوة هذا البحث المعنون: الحنين في شعر الأمير عبد القادر لرسالة الماستر و للإجابة عن إشكالية البحث قامت الدراسة على

ثلاثة فصول :

فصل تمهيدي: تناولت فيه تعريف الشعر الجزائري و مساره التاريخي عبر العصور بدءا من شعر المنابر في أواخر القرن وصولا إلى الشعر الحر في العصر الحديث

- ومنه تبين لي أن الشعر الجزائري ضارب بجذوره في أعماق التاريخ

- وأن أرض الجزائر أنجبت شعراء لمعت أسماءهم في سماء الشعر والإبداع الأدبي.

الفصل الأول: كان بمثابة تقرير مفصل عن حياة الشاعر الأمير عبد القادر شاعرا ورائدا في شتى المجالات

وخاصة هذا الفصل أن الأمير عبد القادر أسطورة عصره بشخصية تخطت كل الحدود الجغرافية بمواقف و بطولات أهلتة للعالمية.

الفصل الثاني: بعنوان التجربة الشعرية عند الأمير عبد القادر و أهم الأغراض الشعرية بالديوان و خلاصة هذا الفصل هو استحقاق الأمير لقب الأمير الشاعر في بيئة تفتقد لأي حراك أدبي أو ثقافي ومع هذا كان شاعرا فذا زخر

ديوانه بالموضوعاتية

أما الفصل الثالث: فقد كان جانبا تطبيقيا لهاذ البحث إذا كانت قصيدة الباذلون نفوسهم نموذجا لمواطن الحنين في هاته الأخيرة وقد

قسمت هاذ الفصل لثلاثة أجزاء:

1 مقاربات نظرية وضحت معنى الحنين.

2 دراسة تطبيقية تناولت شرح الأبيات.

3 الجمالية الفنية بالقصيدة .

وأختتمت بفهرس موضوعات لتسهيل سبل البحث للباحث.

The summary of master dissertation.

This dissertation titled "The Tenderness in EL AMIRE ABD EL KADER poetry", The study comes in introductory chapter and three chapter.

The introductory chapter : IT discusses about the definition of Algerian poet and about their historical distances . In addition the statements concerning the several from the start of "poet of manaber in the last centuries to "The free poet in modern poet ". It was turned out that the Algerian poet are rooted in the deep history . In addition the Algerian land gave born poets , there name shine in the sky of poets and creativity literature.

The first chapter : Titled << The poetic experience of AL AMIRE ABD EL KAADER >> . The first part point out his birth and life's details while the second part focus on his personality and his sources of culture.

As resume of this chapter ,It was abvious that Amire

Was a legend of his period thanks to his strong personality which guertop all the geographical limitis .

The second chapter : Titled <<the poetic experience of El AMIRE ABD EL KHADER>>. The first part discusses about the definition of collection poem , the main of his poet.

The second part concerning the effect of poet and his death , the summary of this chapter is the merit of AMIRE for ladel of poet prince in the envirement need to ol culture and literature with this absence element he was feat poet.

The third chapter: Is considered the practical chapter. The first part contains the significances and clarification of the tenderness. We talked about the stimulinous of tenderness then we focus on the carries of tenderness in << Bathelona Noufossahome poet >>. After that , this chapter into three part :

*Theoretical approach clarify the sense of tenderness.

*Practical study discusses about the explanation of poetry.

*Artistic art of the poem.



نِعْمَ بِحَمْدِ اللَّهِ